الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دار الجاحظ للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم .

جيل اودن

ترجمة
علي الحلي

السعر ٥٠ فلسا   دار الحرية للطباعة - بغداد

الموسوعة الصغيرة
٩٥

الادب ومعارك العرب المصيرية

تأليف
د. عادل جاسم البياتي

الدكتور عادل جاسم البياتي

- ولد ببغداد عام ١٩٣٤ وتلقى تعليمه في مدارسها ، وتخرج في كلية التربية ثم التحق بجامعة القاهرة لنيل شهادة الماجستير سنة ١٩٦٨ وشهادة الدكتوراه من جامعة عين شمس في سنة ١٩٧٣ .

- أصدر مجموعة من البحوث العلمية والأدبية تبلغ سبعة كتب ومايقرب من أربعين بحثاً أكاديمياً منشوراً في المجلات العربية والعراقية منها :

١ - البطل الأسطوري والملحمي
٢ - الشعر والتاريخ
٣ - الفرات وأثره في تراثنا الشعري والحضاري
٤ - المرثيات في الأدب العربي

ومن كتبه :

١ - الشعر في حرب داحس والغبراء
٢ - أيام العرب في الجاهلية "تحقيق ودراسة"
٣ - تاريخ الأدب العربي - "بالاشتراك مع أساتذين فاضلين"
٤ - ظل الفارس النحاسي "ديوان شعر مطبوع"

- أستاذ سابق في كلية الأداب بجامعة بغداد ويقوم حالياً بالتدريس في كلية الأداب بالجامعة المستنصرية (قسم اللغة العربية)

مكتبتنا العربية

الصغيرة

منشورات دار الجاحظ للنشر

الجمهورية العراقية — ١٠ تموز ١٩٨١

مكتبتنا العربية

الموسوعة الصغيرة

٩٥

الأدب ومعارك العرب المصيرية

د. عادل جاسم البياتي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تقديـــم :

تهدف هذه الدراســة الى تاصــيل « ادب المقاومة » وتعمل على ابراز سمات الشــعر الذي جادت به القريحة العربيــة قبل الاســلام وبعــده واقفــة عند اخريات العهـد الراشدي ، فالمقصـود بالمعارك المصيرية ، هي اللقاءات الكبيرة الحاســمة التي دارت على الســاحة العربية ضد الاجنبي المحتل قبل الاسلام ثم بوجه خاص على ساحتى «القادسية واليرموك» في الاسلام ، فدخل معها الشعر الـذي ناجز العــرب به اليهـود ودسائســهم العنصـرية الاسرائيلية في عصر الرسول (ص) كما ناجز احلافهم الوثنيين لارتباطهما بالتآمـر الدولي يومئـذ مـع الاحباش الاثيوبيين والفـرس الساسانيين والـروم البيزنطيين لضرب الصيغة العربية الاسلامية الطالعة يومئذ ، والثـائرة بالامة نحو التحرر والوحدة وبناء الوطن المتين ، وبالعالم نحو آفاق انسانية رحبــة ومشرقــة .

هذا وسنتابع في المســتقبل دراســة الادب ومعارك المصير في العصر العباسي ثم الادب والحروب الصليبية ، ثم اخيرا الادب ومعاركنا المصير به ضد العدو الصهيوني .

القسم الاول
أدب المعارك المصيرية قبل الاسلام

يقف « ادب الصراع العربي ضد المحتل الاجنبي » او « ادب المعارك القومية المصيرية » الى جانب بقية الاتجاهات الادبية في اغراض التعبير عن مختلف الموضوعات ، على مستوى من الفزارة والعمق ، بشكل لا يمكن تغافله او تجاوزه ، بل هذه الظاهرة من الوضوح ، بحيث تستدعي الوقوف عندها ، والاستقصاء والدراسة لابعادها .

وقد بلغ من شغف العرب بمصيرهم ، ومن حرصهم على عرضهم وارضهم ، ومن نخوتهم في الذود عن ذمارهم وحياضهم ، ان اولوا ادب معاركهم القومية اهتماما كبيرا يسمو في منزلته على كل غرض سواه في الاتجاه الادبي ، حتى لقد جعلوا لكل معركة بطلا قوميا ، رمزوا به الى عمق الصراع وشدة المقاومة العربية ، فورثنا طائفة من ابطال الروايات والقصص والملاحم الشعرية والسير الشعبية ، ما اذا احصيت استغرقت الصفحات ؛ فكان سيف بن ذي يزن مثلا ، رمزا قوميا وبطلا ملحميا ، يتردد اسمه في اشعار المعارك المصيرية ضد احتلال الاحباش لارض الجنوب العربي ، حتى صيغت الملحمة الكبيرة حول اسمه وتحولت الى

سيرة شعبية ترددها الجماهير العربية منذ اكثر من الف وخمسمائة عام الى يومنا هذا ، دون ان تفقد عطاءها وقوة اسرها في الاحداث والمضامين والشخصيات ، بل ان الزمن ليمر وجمال الملحمة يزداد ، والسبب بسيط جدا ، هو امتداد الحدث في حياة العرب في صيغ متشابهة مع الحفاظ على الاصالة ، فلم يزل العربي ، ذلك الشهم الغيور المحب لوطنه وقومه ، والرافض لاشكال الذل والعبودية ، وان شخصية (سيف) ترجمة حقيقية وانية لاعماق الحاضر ، لان سيف الذي انتفض في وجه الفرس الساسانيين والاحباش الاثيوبيين ، هو نفسه اليوم ينتفض في صورة مائة مليون عربي في وجه احفاد اولئك الذين عرفناهم في التاريخ بأسماء مغايرة لما عليها اليوم . وقد كان المثنى بن حارثة الشيباني بطلا آخر من ابطال الصراع القومي قبل الاسلام وبعده ، وذلك بوقوفه في وجه الاحتلال الفارسي وتطهير الارض العربية من جيوشهم ، حتى ان الخليفة ابا بكر (رض) عندما سمع بانتصاراته الكبيرة ، وهو يقاتل الفرس ، وتتحرر على يديه بعض الحواضر العربية ، ويسير بقواته شمالا الى البحرين حتى تمكن من تحرير «القطيف» و «هجر» ، وبلغ مصب الفرات ودجلة ، وقضى في مسيرته الكبيرة على الفرس وعمالهم ، متابعا السير

فاجتاز الخليج العربي الى الشمال ونزل بالقبائل العربية المقيمة ماوراء شط العرب واقليم عربستان وعقد معهم بعض المعاهدات ، امر ابو بكر ان يساند المسلمون هذه المسيرة فانضموا اليها ، فكانت مقدمات وقعة القادسية التي ادى فيها الشعر والخطبة والرجز والسجع دورا خالدا في تاريخ الادب العربي ، حيث ذكر الطبري في تاريخه ان سعد بن ابي وقاص ، كان قد جمع الشعراء من امثال ابي محجن الثقفي وابي ذؤيب الهذلي والنابغة الجعدي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والقعقاع بن عمرو التميمي وقيس بن مكشوح المرادي وطلب منهم ان يعملوا على ايقاظ الشعور القومي والحماس الوطني في نفوس الناس ، ليكون الشعر في المعركة المصيرية سلاحا ماضيا الى جانب اسلحة الحرب الاخرى ، ففعلوا ، فكان صوت الادب من شعر ورجز وخطبة وسجع ومثل ، يعلو حتى تألفت منه ملحمة عظيمة .

وقد بلغ اعجاب الجماهير العربية ببعض ابطالهم مثل « عنترة بن شداد العبسي » حدا ان ارتفعوا به من بطل محلي مغمور تنحصر بطولاته في اهله وقبيلته ، وفي (نجد) على ابعد تقدير ، الى بطل قومي يواجه الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين والاحباش الاثيوبيين، ويصل الى ارض

الصين ، ويمتد به العمر الاسطوري فيحارب الصليبيين . ورسمت لنا ريشة الفنان العربي بالكلمات المؤثرة ، بطولة قومية نادرة لفارس عربي غيور على قومه وارضه وعرضه في قصة البراق بن روحان ، وهو يقاتل جند كسرى قبل الاسلام ، ليستنقذ ابنة عمه ليلى بنت لكيز التي وقعت في براثن الملك المجوسي الذي اختطفها وجعل يعذبها تعذيبا وحشيا ، يضربها بالسياط ، ويكويها بالنار ، فكانت تواجههم بغرر الاشعار ، تحملها عنها الرواة والركبان في كل مكان لتحفز العرب ، وتحملهم على التوثب ضد الفرس المحتلين . ومثل ليلى فعلت صفية بنت ثعلبة الشيبانية ، اخت الفارس العربي عمرو بن ثعلبة الشيباني الذي كان يغير على الجيش الفارسي ليجلوه عن الارض العربية ، فكانت اشعارها تشعل براكين الثورة في قلوب الرجال ، وسنلتقي بها بعد قليل . ومثلها ايضا فعلت هند بنت النعمان بن المنذر ملك العرب الذي انف ان يسلم عرضه وارضه وقومه غنائم سهلة الى الفرس . فكان مصيره القتل غدرا ، حيث خدعه واستدعاه كسرى ، فرمى به تحت ارجل الفيلة فاندلعت بسبب ذلك حرب (ذي قار) المشهورة .
ولما كنا بصدد استعراض البطولات العربية ، فلا يصح لنا أن نهمل ذكر الشاعر الفارس لقيط بن

يعمر الايادي صاحب العينية المشهورة في ايقاظ الامة العربية ضد الخطر الفارسي الذي يداهم ارضهم وعرضهم ومالهم ، وسيتصل بنا الحديث عن البطولات الاسلامية ضد الفرس وضد الصليبيين والمغول والتتر والصهاينة .

ولم اشا ان استطرد لاذكر كل الملاحم والاعمال الادبية والابطال العرب ، لانني ساعود الى ذكرهم مرة اخرى بشيء من التفصيل مع امثلة لعملهم الادبي الخالد ، لكنني اود ان اعيد القارىء الى اعماق التاريخ العربي لابين ان حركة المقاومة الادبية للاحتلال الاجنبي كانت قبل العصر الاسلامي وما قبله من العصر الجاهلي . فقد وردت اشارات عديدة لاعمال ادبية صورت لنا مواقف الكتاب والشعراء من احتلال ارضهم وسبي قومهم ونهب اموالهم وتدمير مدنهم وحضارتهم . فهذه قصيدة سومرية ، تعكس لنا الخراب الذي الحقه العيلاميون ، اسلاف الفرس الاخمينيين لعاصمتهم، حيث عثر على القصيدة في خرائب « نفر » وهي تعبر في صورة رثاء محزن عن انتهاء تاريخ السومريين كقوم مستقلين اخذ العالم القديم عنهم حضارة جديدة لم يعرفها احد . يقول مقطع من القصيدة :

فلما غلبوا ، والنظام خربوا
ثم كالطوفان دمّر العيلاميون كل شيء
فالى اي حال يا سومر بدّلوك
فالسلالة المقدسة من المعبد اجلوها
وخربوا المدينة ، والمعبد دمروه
وحكم البلاد اغتصبوه
وبامر (انليل) ، النظام محوه
بروح (آنو) العاصف الهائج قضى على النظام
وحوّل (انليل) نظره الى ارض غريبة
وسيق (ابي ـ سن) المقدس اسيراً الى عيلام .

ولا اريد ان افصل في حجم الضرر الذي اصاب البشر يومئذ من قيام الغزو الايراني بتدمير سومر ، لكنني ساورد ما جاء في كتاب سيتون لويد (عن تاريخ العراق منذ اقدم عصوره حتى الان) حيث يسوق المؤلف مديح السير ليونارد وولي ، لما ساهم به السومريون في تقدم الحضارة العالمية حيث قال : لقد كانت حضارتهم التي نورت عالما كان لايزال في غياهب الحياة المتوحشة ، العلة الاولى في بناء الحضارة فلقد مضى الزمن الذي كانت ترجع فيه اصول جميع الفنون الى بلاد الاغريق ، كاملة النضج من دماغ زفس الاوليمبي ،

فلقد صرنا نعرف الان ان زهرة تلك العبقرية قد اجتذبت رحيقها من الليديين والحثيين ومن فينيقيا وتكريت ومن بابل ومصر ، ولكن جذور تلك الزهرة تمتد الى ابعد من ذلك ، الى سومر ، اقدم هذه الامم . ان فتوحات السومريين وفنونهم وصناعاتهم التي بلغوا بها شأوا بعيدا ، وان نظمهم الاجتماعية ومبادئهم الاخلاقية وحتى دياناتهم لم تكن حدثا منفردا بنفسه او موضوعا اركيولوجيا شائقا ، بل ان ذلك جميعه ليس الا جزء من كياننا يستحق ان نعنى بدرسه ، واذا وجب علينا الاعجاب بهم ، فاننا في الواقع ، نمتدح اسلافنا بالروح ، هذا ما قاله السير (ليونارد وولي) معلقا على هذه الحضارة التي رثتها القصيدة المذكورة ، واوردناه مثالا حيا على ان الادب كان في المعركة منذ اقدم ازمانه ، كما تدلنا القصيدة على معنى آخر اخذه العبرانيون فيما بعد واودعوه في مأثورهم العبري ، وهم يتحدثون عن حروبهم وهزائمهم ، فيعزون سقوط « يهوذا » و « اسرائيل » نتيجة لاثامهما ، فكان يهوذا يعارض دائما سياسة الاعتماد على العون الاجنبي ــ كما اورد الباحث سبيتينو موسكاتي ــ بينما كان اسرائيل يدعو الى الاستسلام لبابل التي اختارها الله لعقاب شعبه الضال .

ولعل اقدم ما بايدينا من النزاع العربي الاجنبي ، فيما يخص العرب الجزيريين تلك الحركة

التي قادها البطل القومي المشهور الذي تطرقنا الى ذكر اسمه قبل قليل ، وهو سيف بن ذي يزن ، ضد الاحباش الاثيوبيين الذين حاولوا ان يفرضوا احتلالهم على الجنوب العربي وسيطرتهم على مدنه وموانئه وطرق تجارته ، فاندلعت حركة المقاومة العربية والهبت الارض نارا تحت اقدامهم ، متخذة اشكالا من الرفض والثورة ، لكن القوة العسكرية التي في يد الاحباش كانت تفوق القوة التي في يد الثوار الوطنيين ، لان الاحباش كانوا يستعينون بالروم البيزنطيين ، مقابل قيام الطرف المحتل بتمهيد الطرق الستراتيجية للحليف بحكم ما بينهما من تواصل دين واحد ، مما اضطر سيفا ان يرحل الى (القيصر) ليقنعه بضرورة التحول عن مساندة المحتل الى الدخول في تحالفات شرعية وطبيعية مع العرب ، لكن القيصر رفض ذلك ، فاضطر (سيف) على المسير الى اعداء الروم ، وهم الفرس الساسانيون ، فجعل يستعدي هذه الامبراطورية على تلك ، ويستنفرها لتمده بما تستطيع من القوة والسلاح . وقد ذكر شعر المعارك هذه العملية الذكية التي قام بها سيف ، فقال ابو الصلت الثقفي :

ليطلب الثار امثال بن ذي يزن
ريّم في البحر للاعداء احوالا

يمنٌ قيصـــر لما حـان رحلتـــه
فلم يجـد عنده بعض الذي سـالا
ثم انثنى نحـو كسرى بعـد عاشرة
مـن السنين يهـين النفس والمالا
حتى الى بني الاحـرار يحملهـم
إنك عمـري لقـد اسرعت قلقالا
لله درهـم من عصبـة خرجت
ما إن ارى مثلهم في الناس امثـالا

وكان العرب يطلقون عبارة بني الاحرار على كل امة لم يدخل ارضها اجنبي ، فلما خر الفرس امام العرب في معركة ذي قار والقادسية ونهاوند ، لم يعودوا يطلقون عليهم هذا الاسم . ولما تحقق لسيف ما كان يطمح اليه ، بعد قصة لقائه مع كسرى ، لا ارى موجبا لايرادها هنا : جاء بالقوة العسكرية ، وعبر بها البحر حتى نزل على الشواطىء العربية ، واراد ان يستوثق لنفسه ، ويتاكد من عدم غدر حلفائه به ؛ فاحرق السفن بعد ان انزل منها ما فيها من العدة والرجال والسلاح والقى خطبته التي هدد فيها جميع المقاتلين إن لم يخلصوا في حربهم وقتالهم فانهم سيكونون طعاما لسيوف الاحباش اذا اندحروا او لوحوش البحر ان انهزموا ؛ فصارت هذه الخطة العسكرية والخطبة الحماسية تقليدا ادبيا عسكريا

اقتدى به القادة العرب فيما بعد ، فاستخدمها السفاح التغلبي حين هرق ماء جنده وهددهم ان هم لم ينتصروا ماتوا عطشا في الصحراء ، او قتلوا على يد الاعداء . وكان اشهر من استخدمها هو القائد العربي طارق بن زياد ، ثم اخذها عنه القادة الاوربيون لدى اقتحامهم المدن الساحلية في اثناء حملة الاستكشافات والاستعمار . وقد قمت بدراسة هذه الظاهرة تحت عنوان « الموثبات في الادب العربي » واوردت لنا المصادر العربية طائفة من ادب العرب تلحقه بادب المعركة ، يتعلق بانتصار سيف بن ذي يزن على الاحباش . فمن قبيل ذلك الخطب الحماسية التي القتها الوفود العربية امام (سيف) وهي تقدم له التهنئة بالفوز القومي الكبير ، فكان ممن قدم عليه وخطب امامه عبدالمطلب ابن هاشم ، جد رسول الله (ص) ، دخل على سيف ابن ذي يزن فوجده جالسا وسيفه بين يديه ، فقال عبدالمطلب .

« ايها الملك . إن الله احلك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شامخا . وانبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، ونبل اصله ، وبسق فرعه ، في اكرم معدن ، واطيب موطن . فانت ـ ابيت اللعن ـ راس العرب ، وربيعها الذي تخصب ، وملكها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ،

ومعقلها الذي اليه يلجا العباد . سلفك خير سلف ، وانت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يخمل من انت سلفه . نحن ايها الملك حرم الله وذمته وسدنة بيته . اشخصنا الذي انهجك لكشفك الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة . . » وهي خطبة طويلة . ومدحه امية ابن ابي الصلت مفتخرا بنصره القومي الكبير فقال :

جلبنا النصح تحمله المطايا
الى اكوار اجمال ونوق
مغلغلة مرافقها تقالاً
الى صنعاء من فج عميق
تؤم بها ابن ذي يزن وتفري
بطون خفافها ام الطريق
وتلمح من مخايله بروقا
مواصلة الوميض الى البروق
فلما واقعت صنعاء صارت
بدار الملك والحسب العتيق

ولما نجح (سيف) في خطته ، وطرد الاحباش، بدات متاعبهالجديدة مرة اخرى معالفرس ، وشعر انه عندما طرد الاحباش بقوة عسكرية من الفرس انما استبدل سيدا بسيد ، فاخذ يعمل من جديد على طرد الفرس الذين تغلغلوا في الارض العربية . حقا ، لقد كان اعتداء ابرهة الاشرم

على الكعبة حافزا من حوافز ثورة (سيف) على الاحباش ، يضاف الى ما لقيه العرب من الاذى والتسلط على يد جيش ابرهة ، الا انه بعد هذا كله ، ثار لما كان يراود اجفانه من حلم كبير في استعادة رقعة الوطن السليب وتوحيده تحت حكم عربي واحد ، لذلك ندم على السماح للفرس ان تطا اقدامهم ارض الجنوب العربي ، وللسبب نفسه جعلت الاسطورة الشعبية من (سيف) مقاتلا عملاقا يحرر جميع الاراضي العربية . ويتجه الى الاراضي البعيدة ، فاستقر في اعماق الذاكرة العربية رمزا لبطل الحرية والاستقلال القومي ، استمر تاثيره ممتدا في زخم وعطاء يرفد الادب العربي حتى العصور الاسلامية المتاخرة ، وذلك بظهور الملحمة الوطنية المعروفة بسيرة سيف بن ذي يزن . واذا كان سيف قد هلك وهو في اوج صراعه ضد الفرس ، فان النعمان بن المنذر تسلم الراية من (سيف) ، لان (النعمان) هو الذي اخذ سيف بن ذي يزن الى كسرى لطلب المعونة العسكرية . فلما راى ظلم الفرس وتماديهم في ضلالهم ، اخذ النعمان يتنصل من جميع التزاماته معهم ، فكان يتحين المناسبة ليعلن الثورة العربية في وجه كسرى وجنده الذين يتجولون في الاراضي العربية

وينهبون اهلها وخيراتها ؛ فكان ذلك عندما بعث كسرى الى النعمان يطلب منه ان يبعث اليه بابنته هند بنت النعمان وبعض النساء العربيات كان كسرى قد ثبت أوصافهن ومحاسنهن في الكتاب الذي بعث به اليه . فغضب النعمان واجاب كسرى اجابة مهينة ؛ وجعل يتنقل بين القبائل العربية يؤلبها على الفرس ويعلن الحرب المقدسة ضدهم . وقد صور لنا زهير بن ابي سلمى استجابة قبيلة بني عبس لصيحاته القومية في مواجهة الخطر الفارسي :

فلم ارَ مسلوبا له مثل قرضه
اقلُ صديقا معطيا ومواسيا
سوى ان حيا من رواحه اقبلوا
وكانوا قديما يتقون المخازيا
يسيرون حتى حبّسوا عند بابه
ثقال الروايا والهجان المتاليا
فقال لهم خيرا واثنى عليهم
وودعهم وداع الا تلاقيا

ثم انصرف النعمان ، فسقط في ايدي الفرس فقتلوه، ورثاه النابغةالذبياني بعد زهير بنابي سلمى في قصيدته اليائية المتقدمة التي استشهدت بابيات منها ، ورثاه لبيد بن ربيعة ايضا ، ولم ار رجلا عظيما قبل الاسلام رثاه ثلاثة شعراء عمالقة من

اصحاب المعلقات مثل النعمان بن المنذر حين رثاه النابغة وزهير ولبيد ، وما ذلك منهم الا لموقع النعمان من نفوسهم ونفوس العرب ؛ وهي مكانة املتها مواقفه القومية واستشهاده في سبيل عزة العروبة وشرفها . وكان النابغة قد قال فيه في حياته :

فان يهلك ابو قابوس يهلك
ربيع الناس والشهر الحرام

فرثاه وقال :

قل للهمام وخير القول اصدقه
والدهر يومض بعد الحال بالحال
ماذا رزئنا به من حية ذكر
نضناضة بالرزايا صلّ اصلال
وغالةٍ في دجى الاهوال ان نزلت
حرّاجة في ذراها غير زمّال
ماضٍ يكون لها جد اذا نزلت
حرب يوائل منها كل تنبال

ورثاه لبيد فقال من قصيدة طويلة :

ليبكِ على النعمان شَربٌ وقينة
ومختبطات كالسعالى ارامل
له الملك في ضاحي معد واسلمت
اليه العباد كلها ما يحاول

اذا من اسار الطيور صفت لـه
مشعشعة مما تعتق بابل
فيوما عناة بالحديد يفكهم
ويوما جياد ملجمات نوافل
وبالرس اوصال كان زهاءها
ذوي الغمر لما زال عنها القبائل
وغسان ذلت يوم جلق ذلة
بسيدها والاريحي المنازل
رعى خرزات الملك عشرين حجة
وعشرين حتى فاد والشيب شامل

فلما علمت هند بنت النعمان بمقتل ابيها ، ومسير الجيش الفارسي اليهم ، وكانت مختفية في بعض القبائل العربية ، خرجت تنذرهم وتقول :

الا ابلغ بني بكر رسولا
فقد جد النذير بعنقفير
فليت الجيش كلهم فداكم
ونفسي والسرير وذا السرير
كاني حين جد بهم اليكم
معلقة الذوائب بالعبور
فلو اني اطقت لذاك دفعا
اذا لدفعته بدمي وزيري

واطلق مثل هذا الانذار لقومه ، لقيط بن يعمر الايادي ، يعلمهم بمسير جيش الفرس اليهم، حيث ارسل بصحيفته المشهورة :

سلام في الصحيفة من لقيط
على من في الجزيرة من اياد
بان الليث ياتيكم دليفا
فلا يشغلكم سوق النقاد
اتوكم منهم ستون الفا
يزجون الكتائب كالجراد
على حنق اتونكم وهذا
اوان هلاككم كهلاك عاد

واراد الشاعر بلفظة (الليث) مرادفها وهي لفظة (الاسد) وهي راية الفرس التي كانت عليها صورة (الاسد) كما كانت راية العرب هي العقاب المذكور في شعرهم كثيرا قبل الاسلام .

ثم انذرهم لقيط بقصيدته العينية الثانية التي مطلعها :

يا دار عمرة من محتلها الجرعا
هاجت لي الهم والاحزان والوجعا

ويقول فيها :

ابلغ إيادا وخلل في سراتهم
اني ارى الراي إن لم اعص قد نصعا
يا لهف نفسي ان كانت اموركم
شتى واحكم امر الناس فاجتمعا

الا تخافون قوما لا ابالكم
امسوا اليكم كارسال الدبى سرعا
ابناء قوم تاوءوكم على حنق
لا يشعرون اضرّ اللّه ام نفعا
في كل يوم يسنون الحراب لكم
لا يهجمون اذا ما غافل هجعا
مالي اراكم نياما في بلهنية
وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
يا قوم بيضتكم لا تفجعنّ بها
اني اخاف عليها الازلم الجذعا
يا قوم لا تامنوا ان كنتم غيرا
على نسائكم كسرى وما جمعا
هو الفناء الذي يجتث اصلكم
فمن راى مثل ذا رايا ومن سمعا
فقلدوا امركم للّه درّكم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده
ولا اذا عضّ مكروه به خشعا
ما انفكّ يحلب هذا الدهر اشطره
يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته
مستحكم السن لا قحما ولا ضرعا

لا يطعم النوم الا ريث يبعثه
همٌّ يكاد شباه يفصم الضلعا
مستنجدا يتحدى الناس كلهم
لو صارعوه جميعا في الوغى صرعا
لقد نخلت لكم رايي بلا دخل
فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

فلما بلغ كسرى شعر لقيط قتله ، وكان كاتبه بالعربية وترجمانه ، فهو اول شاعر شهيد يرد ذكره في ادب المعارك المصرية .

وكانت قبائل عربية متفرقة في الارض العربية تدير معارك اخرى في نفس اتجاه هذه المعارك . وتأتي قصة ليلى بنت لكيز زوجة البرّاق ابن روحان في مقدمة هذه القصص الادبية التي تروي سطور النصر العربي على اعدائهم الباغين ؛ وتعد نموذجا آخر من نماذج المقاومة العربية في وجه الاحتلال ؛ تضاف إلى ملحمة ذي قار الكبرى . وكانت ليلى تعرف بالعفيفة ، وهو لقب اضفاه عليها شعبها العربي لوقوفها باباء وشرف ضد نزوات كسرى الغاشمة . وكان ابوها قد نزل بها في ناحية من بلاد العرب يحتلها الفرس ، وكانت من أجمل نساء زمانها ، فأوصل خبرها الى ملك الفرس وقتئذ احد حاشيته ، فقال له الملك :

— ما عسى ان نبلغ منها ، والبدوية تفضل الموت على ان يغشاها اعجمي ؟!

فقال :

— نرغبها بالمال ومحاسن المطاعم والمشارب والملابس .

وارسل الملك فانتزعها من ابيها ، ثم عرض عليها جميع ما يرغب فيه الانسان ويشتهيه ، فلم تستجب ، وخوّفها بجميع العقوبات وعاملها بالتعذيب ، ليرى وجهها ، فابت ، وخيّرته بين ان يقتلها أو يعيدها لابيها . ولما يئس منها اسكنها في موضع وأجرى عليها المال ، واكتفى برؤيتها على البعد . وكان لليلى ابن عم من بني بكر ، فارس شجاع ، يقال البرّاق ، هبّ في وجه الفرس يناضلهم ويقاتلهم حتى استطاع ان يخلّصها وكانت ليلى في سجنها تتغنى باشعار شجية وحماسية تثير حمية قومها وغيرة اخوتها وابناء عمومتها :

ليت للبراق عينا فترى
ما ألاقي من بلاء وعنا

يا كليبا وعقيلا إخوتي
يا جنيدا اسعدوني بالبكا

عذّبت اختكم يا ويلكم
بعذاب النكر صبحا ومسا
غللوني قيدوني ضربوا
ملمس العفة مني بالعصا
يكذب الاعجم ما يقربني
ومعي بعض حشاشات الحيا
فانا كارهة بغيكم
ويقين الموت شيء يرتجى
اصبحت ليلى تغلّ كفها
مثل تغليل الملوك العظما
قل لعدنان هديتم شمروا
لبني مبغوض تشمير الوفا
يا بني تغلب سيروا وانصروا
وذروا الغفلة عنكم والكرى

وقالت تفخر بفارسها (البراق) :

براق سيدنا وفارس خيلنا
وهو المطاعن في مضيق الجحفل
وعماد هذا الحي في مكروهة
ومؤمل يرجوه كل مؤمل

وكان الفرس قد قتلوا اخا البراق غرثان ابن روحان ، فقالت ترثيه :

لما ذكرت غريشا زاد بي كمدي
حتى هممت من البلوى باعلانِ
فلو تراني والاشجان تقلقني
عجبت براقُ من صبري وكتماني
لا درّ درّ كليب يوم راح ولا
أبي لكيز ولا خيلي وفرساني
عن ابن روحان راحت وائل كثباً
عن حامل كل اثقال واوزان
واسلموا المال والاهلين واغتنموا
ارواحهم فكبا زند ابن روحان
فتى ربيعة طوّافٍ اماكنها
وفارس الخيل في روع وميدان

ورثته ام الاعز بنت اخت كليب وائل ، وحرضت بني بكر على الاخذ بثاره من الفرس :

الا فابكي اعيني لا تملّي
فلي بمصابنا ابداً عويلُ
فلا سلمت عشيرتنا وعادت
اذا صرع ابن روحان النبيل
اذا رحتم وخلفتم هُبلتم
لغرثانٍ فلا راح القبيل
فرحتم بالغنائم حين رحتم
وبان بموته الغنم الجليل

تركتم ذا الحفاظ وذا السرايا
وراءكم اضلكم الدليل
فقل لنويرةٍ وكليب مهلاً
اقيما إن خزيكما طويل

ومما يلاحظ من قصة (ليلى والبراق) وقصة النعمان بن المنذر ، ان السبب فيهما واحد، يعود في اساسه الى حرص العربي على ارضه وعرضه وكرامته ، فلقد كان كسرى قد طمع بنسوة عربيات يعرف اوصافهن من عهد ابيه انو شروان ، فتذكر تلك الاوصاف واعادها على الملك النعمان في كتاب اشرف على تحريره زيد ابن الاديب الشاعر عدي بن زيد العبادي الذي كان يعمل كاتبا ومترجما لدى كسرى كرفيقه الشاعر الشهيد لقيط بن يعمر الايادي ، فكان رد الملك النعمان لكسرى رداً يحمل كل معاني الاباء والشرف والمروءة العربية كما تقدم ذكره ، فقال كسرى لزيد :

ـ واين الذي كنت خبرتني به ؟

قال زيد بن عدي :

ـ كنت خبرتك بضنهم بنسائهم على غيرهم ، وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري

على الشبع والرياش ، وإيثارهم السموم والرياح على طيب ارضك هذه ، حتى انهم ليسمونها السجن .

وكان زيد قد قال له قبل ذلك : « ان شر شيء في العرب وفي النعمان خاصة ، انهم يتكرمون كما زعموا في انفسهم عن العجم » وكان قصده ان يوقع بين كسرى والنعمان ثارا بابيه المقتول في سجن النعمان . وسكت كسرى اشهرا ليخدع النعمان ويستدعيه فيقتله ، فلما ارسل اليه ، طاف النعمان في قبائل العرب يبصرهم بحقيقة الموقف ، ثم نزل سرا بذي قار في بني شيبان وهم بطن في بكر بن وائل ، فلقي هانىء بن مسعود أو هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود ، وكان سيدا منيعا ، نجرت بينهم تحالفات وعقود تحسبا ليوم عظيم له ما بعده . وقد كان الفرس قد احتلوا الارض العربية منذ سقوط العاصمة العراقية (بابل) على ايديهم ، الا انهم لم يستطيعوا ان يرتفعوا الى الشمال حيث(نجد) و (الحجاز) وما جاورهما لمنعتهما ، لكن الفرس لم يفوتوا على انفسهم اية فرصة تسنح في الايقاع بين العرب القاطنين في الشمال بمختلف الدسائس والمكائد التي يحوكونها بين رؤساء القبائل وساداتهم ، لذلك كان وقوف العرب في يوم ذي

قار عظيما اشبه بانفجار كبير كانوا ينتظرون حدوثه ، وقد صور الادب ذلك وساهم في المركة القومية المصيرية اشرف مساهمة بما فيهم المراة العربية الشاعرة ، كالرجز المشهور الذي انطلقت به امراة من عجل :

ان تهزموا نعانق
وتفرش النمارق

او تهزموا نفارق
فراق غير وامق

وهي اهزوجة طويلة مروية في مصادر الادب القديمة ، وقد اعادت صياغتها هند بنت عتبة في يوم احد عند لقاء قريش بالمسلمين . وارتفع صوت الخطبة الحماسية عاليا في هذا اليوم الشريف ، فخطب هاني بن قبيصة في الناس يحرضهم على الحرب في يوم ذي قار :

« يا معشر بكر ، هالك معذور ، خير من ناج فرور ، ان الحذر لا ينجي من القدر ، وان الصبر من اسباب الظفر . المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن في ثغر النحور اكرم منه في الاعجاز والظهور . يا آل بكر قاتلوا ، فما للمنايا من بد . . » . وكان حنظلة بن سيار

المجلي احد القادة المرموقين بذي قار وكان شاعرا ، فاستخدم سلاح الادب بكل قوته وحدته في المعركة ، فكان يرتجز ويقول :

مَنْ فرَّ منكم فرَّ عن حريمه
وجاره وفرَّ عن نديمه

انا ابن سيار على شكيمه
ان الشراك قُدَّ من اديمه

وكلهم يجري على قديمه
من قارح الهجنة او صميمه

فهو يحث الناس على الثبات والصمود ، ويذكرهم بان الهزيمة تعني ترك النسوة والاهل والاطفال والمال سبايا منهوبين بايدي الفرس ، وهو شيء يأباه العربي الاصيل الذي عرف بقديمه وجديده الناصعين . وقد كان الناس قد خدعوا بمظهر الباس والبزة العسكرية والسلاح التي تغطي الفرس عندما وقف الجيشان متقابلين ، فصرخ عمرو بن جبلة اليشكري مدويا :

يا قوم لا تغرركم هذي الخِرقْ
ولا وميض البيض في الشمس بَرَقْ
من لم يقاتل منكم هذه العنقْ
فجنبوه الراح واسقوه المرقْ

وقد كان لهذا النصر مغزاه العميق في نفوس

العرب الذين لاقوا الاذى على ايدي الفرس المنصريين؛ لذلك جرت محاسبة الخائنين والمتخاذلين والفارين المهزومين والجبناء شديدة وصارمة فجردوهم من كل شرف ، لان هذا اللقاء العربي الكبير كان امتحانا للجميع ، فجعل الشعراء يهجون من سنحت له فرصة المساهمة ولم يساهم ، او اتيح له شرف الكفاح وتاخر عنه ، خائنا او متخاذلا او جبانا ، بل سلبوهم الشرف بسبب ذلك ، فهذا الاعشى يصف الانتفاضة القومية الكبيرة ، ويلوم القبائل التي لم يلحقها شرف النضال او الاستشهاد:

اما تميم فقد ذاقت عداوتنا
وقيس عيلان مسَّ الخزي والاسفُ

وجند كسرى غداة الحنو صبحّهم
منا غطاريف ترجو الموت فانصرفوا

لقوا ململمة شهباء يقدمها
الموت لا عاجز فيها ولا خرف

فرع نمته فروع غير ناقصة
موثق حازم في امره انف

فيها فوارس محمود لقاؤهم
مثل الاسنة لا ميل ولا كشف

بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم
جِنّان عين عليها البيض والزغف

لما راونا كشفنا عن جماجمنا
ليعلموا اننا بكر" فينصرفوا
قالوا : البقية" ؛ والهندي يحصدهم
ولا بقية الا السيف ؛ فانكشفوا
لو ان" كل معد كان شاركنا
في يوم ذي قار ما اخطاهم الشرف
لما اتونا كان" الليل يقدمهم
مطبّق الارض تغشاها بهم سدف'
بطارق" وبنو ملك مرازبة"
من الاعاجم في اذانها النطف'
من كل مرجانة في البحر احرزها
تيارها ورقاها طينها الصدف
وظعننا خلفنا تجري مدامعها
اكبادها وجلا مما ترى ، تجف'
كانما الال في حافات جمعهم
والبيض برق بدا في عارض يكف'
يحسرن عن اوجه قد عاينت عبرا
ولاحها غبرة الوانها كسف'
ما في الخدود صدود عن وجوههم
ولا عن الطعن باللبات منحرف
لما امالوا الى النشاب ايديهم
ملنا ببيض فظل" الهام يقتطف

وخيل بكر فما تنفك" تطحنهم
حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

ومضى الاعشى في قصيدة ثانية يعير بعض رجال القبائل الذين خانوا قومهم وذهبوا الى العدو يأومونه ويقاضونه ويبدون ضروبا من الخنوع والذل والاستسلام ، مثل قيس بن مسعود ، وكان قد شارك مع الفرس في غزو العرب ، ووفد بعد هزيمة ذي قار على كسرى يعتذر له ويطيب خاطره، فهجاه الاعشى وعيره بقيامه في غزو العرب ثم زيارته لعدوهم كسرى زيارة ذل واستسلام وعار فقال :

اقيس بن مسعود بن قيس بن خالد
وانت امرؤ ترجو شبابك وائل
اطورين في عام غزاة ورحلة
الا ليت قيسا غرّقته القوابل
لقد كان في شيبان لو كنت عالما
قباب وحيّ حلّة وقنابل
رحلت ولم تنظر وانت عميدهم
فلا يبلغني عنك ما انت فاعل
تعرّيت من اهل ومال جمعته
كما عرّيت" مما تمرّ المغازل
لعلك يوم الحنو اذ صبّحتهم
كتائب' موت ، لم تعقك العواذل

كأنك لم تشهد قرابين جمة
تعيث ضباع فيهم وعواسل
تركتهم صرعى لدى كل منهل
وأقبلت تبغي الصلح ، أمك هابل

ولعل اجمل ما يصور وحدة القبائل العربية في حرب ذي قار ، قصيدة قالها احد شعراء بني تغلب ، تصف باسلوب شعري وحماسي معا ، قدوم الفرسان الى الساحة العربية في مواجهة تاريخية فاصلة ضد عدوهم الخارجي ومن اجل معركة قومية مصيرية حيث قال :

ولقد رايت اخاك عمرا مرة
يقضي وضيميه بذات العجرم
في غمرة الموت التي لا تشتكي
غمراتها الابطال غير تغمغم
وكأنما أقدامهم واكفهم
سرب تساقط في خليج مفعم
لما سمعت دعاء مرة قد علا
وابني ربيعة في العجاج الاقتم
ومحلم يمشون تحت لوائهم
والموت تحت لواء آل محلم
لا يصرفون عن الوغى بوجوههم
في كل سابغة كلون العظلم

ودعت بنو ام الرقاع فاقبلوا
عند اللقاء بكل شاك معلم
وسمعت يشكر تدعي بخبيب
تحت العجاجة وهي تقطر بالدم
يمشون في حلق الحديد كما مشت
اسد العرين بيوم نحس مظلم
والجمع من ذهل كان زهاءهم
مشي الجمال يقودها ابنا تشعم
والخيل من تحت العجاج عوابسا
وعلى مناسجها سحائب من دم

ولست ابتغي الاستطراد وراء عشرات القصائد والارجاز التي قيلت في هذا اليوم ، فللاعشى وحده في ديوانه اربع قصائد في هذه الحرب ولغيره اكثر من قصيدة ، بل ظل لهيب الشعر متقدا الى الاسلام ، تزاد في شدته يوم القادسية ، وظل الشعراء في الاسلام وبعد القادسية يذكرون يوم ذي قار في اشعارهم . ولعل اوضح من ذكر دفاع العرب عن ارضهم وعرصات دورهم هو ابو كلبة التيمي :

لولا فوارس لا ميل ولا عزل
من اللهازم ما قظتم بذي قار

إن الفوارس من عجل هم انفوا
من أن يخلّوا لكسرى عرصة الدار
وقال العُديل بن الفرخ العجلي :
ما اوقد الناس من نار لمكرمة
الا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدّون من يوم سمعت به
للناس افضل من يوم بذي قار
جئنا باسلابهم والخيل عابسة
لما استلبنا لكسرى كل اسوار

ومن غريب ما يروى عن العرب قبل الاسلام، انهم كانوا عقب كل انتصار كبير يجلسون في احتفال جماهيري عظيم تشارك فيه المراة مشاركة وجدانية ووطنية ، فتقام الافراح ويكرم الابطال وتنشد الاشعار والاهازيج ، وتدار الراح بايدي النساء الفخورات بالفرسان الشجعان . وقد صورت لنا وقائع كثيرة مثل هذه المهرجانات الشعبية ، فهذا هو الشاعر بكر اصم بني الحارث ابن عباد يصف اعياد بني شيبان بعد النصر القومي المصيري الكبير :

إن كنت ساقية المدامة اهلها
فاسقي على كرم بني همّام
وابا ربيعة كلها ومحلّما
سبقا بغاية امجد الايام

ضربوا بني الاحرار يوم لقوهم
بالمشرفيّ على مقيل الهام
شدّ ابن قيس شدة ذهبت لها
ذكراً له في معرق وشآم

وقد سبق أن بينت بان العرب كانوا يسمون الامم التي لم يغلبها أحد ولم يدخل ارضها غاز او معتد ، ببني الاحرار ، فلما انهزمت الفرس امام العرب بذي قار والقادسية وسواهما اسقطوا عنهم هذه التسمية . ويلاحظ أن الشاعر يصف اشتهار هذه المعركة قبل الاسلام وانتشار خبرها في العراق والشام وشبه الجزيرة العربية .

ولا اريد ان اتجاوز دور المراة الشاعرة في هذه المعارك القومية المصيرية ، فقد حفلت المظان الادبية باخبارهن واخبار شجاعتهن وفصاحتهن ومقدار مساهماتهن في صنع النصر لقبائلهن ضد العدو الخارجي المحتل . وقد كنت ذكرت هند بنت النعمان بن المنذر ، وامتناعها على كسرى ورفض ابيها تزويجها له ، فكانت من اسباب هذا اللقاء التاريخي الحاسم . وكان النعمان قبل ان يغدر به كسرى قد هيا للعرب معركتهم عند ذهابه الى شيبان سرا وتحالفه مع القبائل ، وايداعه السلاح عندهم ثم اوصاهم ان هو لم

يرجع من كسرى بشروطه العربية ظافرا ، فذلك يعني ان كسرى غدر به وقتله ، وعندئذ تتحشد القبائل ويستخرجون السلاح المودع لدى هانيء ابن قبيصة وتندلع المعركة . وحقا وقع ما تنبأ به الملك النعمان ، فكانت هند ابنته قد استجارت بشيبان فاجارتها صفية بنت ثعلبة الشيبانية وقامت الى قومها تعلن لهم هذه الاجارة ضد كسرى وجيوشه وتنشد قائلة :

احيوا الجوار فقد اماتته معا
كل' الاعارب يا بني شيبان
ما العذر' ؟ قد لفت ثيابي حرة
مغروسة في الدر والمرجان
بنت الملوك ذوي الممالك والعلى
ذات' الحجال وصفوة النعمان
وعلى الاكاسر قد اجرت بحرة
بكهول معشرنا وبالشبان
شيبان قومي هل قبيل مثلهم
عند الكفاح وكرة الفرسان
لا والذوائب من فروع ربيعة
ما مثلهم في نائب الحدثان
قوم يجيرون اللهيف من العدا
ويحاط عمري من صروف زماني

اني حُجيجة وائل ، وبوائل
ينجو الطريد بشطبة وحصان

وكانت صفية تلقب بالحجيجة . تقول المراجع القديمة « نقام بنو شيبان بجوارها وحاربوا جنود العجم وكسروهم كسرة قبيحة ؛ وغنموا منهم مغانم عظيمة » فقالت صفية في ذلك ، وهي قصيدة طويلة :

قولوا لكسرى اجرنا جارة نثوت
في شامخ العز يا كسرى على الرغم
نحن الذين اذا قمنا لداهية
لم نبتدع عندها شيئا من الندم
نحوط جارتنا من كل نائبة
ونرفد الجار ما يرضى من النعم

ولما ارسل كسرى برسله قبيل الحرب الى بني شيبان يطلب اليهم ان تخرج هند بنت النعمان من طاعتهم وتدخل في طاعة امير عربي من صنائع كسرى يقال له « منصور » لكي تبرىء ذمة الشيبانيين مما فعلوا ، ابت صفية ان تفعل ذلك؛ وقالت تخاطب رسولي كسرى ومنصور :

قولا لمنصور لا درت خلائقه
ما صاح فيهم غراب البين او نعقا

يا ويح امك يا منصور إنّ لنا
خيلاً كراماً تصون الجار ما علقا
آلت بنو بكر ترضى ما كتبت به
يا ابن الدنيّة ، فاجمل ان اردت بقا

فحاربهم (المنصور) فكسروه ، فعاد الى سيده الملك الفارسي فامده بعشرين الفا من العرب والفرس واموال كثيرة ومؤن وافرة وعدد عديدة ، فلما علمت صفية بذلك قالت :

ماذا احاذر من عشرين يتقدمهم
منصور في حيّ غسان على نُجبِ
من الجياد عليها الحيّ من يمن
والعجم ترفل في الماذيّ واليلَبِ
لاجل عشرين الفا اُضحَ صارخةً
في آل بكر وذا شيء من العجبِ
لا تكشفوني بهذا اليوم وارتقبوا
يومي لوقت اجتماع العُجْمِ والعرب

تقول الرواية : « فهب القوم ، وتاهبوا للقتال ، وجاءتهم عساكر المنصور بجند كسرى »، فكسر المنصور وتفرقت جنوده بعد جلاد مذكور ، وعاد كسرى منهزما ... ثم جدد كسرى ارسال القوى العظيمة ، فارسل « الطُميح » وهو من

قواد كسرى ، وكاد يضنّ بدماء قومه العرب ان يهدرها (كسرى) سراً الى بني شيبان يعلمهم ويحذرهم ؛ فاجابته صفية ، تمتدح شمائله العربية :

لله درك من نصيح صادق
والنصح رايك ايها الانسان

وهي قصيدة طويلة .

ان ما ترويه المصادر من شعر صفية الشيبانية في هذه المعارك المصيرية كثير جدا ، وقد كانت لها في يوم ذي قار ، عند احتدام النضال ، وقفة عظيمة الى جانب اخيها حنظلة بن ثعلبة الذي عمد الى وُضُن الجمال فقطعها فسقطت الظعائن عنها ، وطلب من الرجال ان يدافعوا عن النسوة اللواتي بقين بلا هوادج (ظعن) فكانت صفية تعاون اخيها في قطع الوضن، فعرف حنظلة باسم : مقطع الوُضُن ، اي الحبال ، وقالت صفية تحرض القبائل العربية ؛ فخاطبت كل القبائل فرقةً فرقة وقبيلةً قبيلة ؛ فاقبلت على بني حنيفة وقالت :

إيها اجيدوا الضرب يا حنيفة
فانتم الجمجمة الشريفة

اهل اللقا والعـدة المعروفـة
والعـدة المنسوجة الموصوفـة
ان الجيـوش حولكم كثيفـة
فلا تهلكـم وتزدكـم خيفـة

وخاطبت بني لجيم :

لجيـم قـومي وبني ابينـا
ليسـوا لدى الهيجـا مغلّبينـا
بـل ظافرون وحمـاة فينـا
العـز فيهـم حـين يلجمـونا
ويسـرحون ثـم يحملـونا
إيهـا بني الأعمـام فانصـرونا

ثم الى بني عجـل ، وفيهـم ابوها واخوها فقالت :

الفخـر فخـري بسـراة عجـلِ
هم معشري في نجدهم والسهـلِ
هـم السـراة وحمـاة الأهـل
والفائقـون بشـريف الفعـل
إيهـا ابيـدوا جمعهـم بالقتـل
ولا تكونـوا غرضـاً للنبـل
واختلطوا فيهـم بغير مهـل

ثم الى بني ذهل :

اليـوم يـوم العز لا يوم النـدم
يـوم رماح وجيـاد وخـدم
يومٌ به الارواح جهـراً تصطلم
سـوف ترى البيض غداة المبتسم
للوائليـات التي تحمي البُهَم
يا آل بكـر لا تهلكـم العجـم
ان صبرتْ ذهلٌ نعزّي اليوم تمّ
وسارت ببني شيبان وهم خلفها وهي تقول :

إيها بني شيبان صفـاً بعد صف
مـن يرد العليـاء لم يخش التلف
مـن حـاذر الموت تنحّى ووقف
ان الشجـاع باسـل فيه الصلَف
ان تقبلوا نظفرْ ونحذرْ ونخفْ
وفي الفـرار يولجوا فينـا القلَف
اليومَ يومُ العز موصوف الشرف
ان حافظت قومي فما بي من اسف
انا ابنة العز وعرضي اليـوم عف
بكل نصـل كالشهـاب المختطف
نخطف قوماً قد عفونا بسَرَف

وكانت هند بنت النعمان بن المنذر تقف الى جانب صفية الشيبانية في معاركها المصيرية رافعة صوت الشعر والرجز عاليا . فمن ذلك قولها تخاطب عمرو بن ثعلبة الشيباني اخا صفية :

حافظ على الحسبِ النفيسِ الارفعِ
بمدجّجين مع الرماح الشرّعِ
وصوارمٍ هنديةٍ مصقولةٍ
بواعدٍ موصولة لم تمنع
وسلاهبٍ من خيلكم معروفةٍ
بالسبق عادية بكل سميدع
واليوم يوم الفصل منك ومنهم
فاصبر لكل شديدة لم تدفع
يا عمرو يا عمرو الكفاح لدى الوغى
يا ليث غاب في اجتماع المجمع
اظهر وفاءً يا فتى وعزيمة
اتضيع مجداً كان غير مضيّع

ولهند بنت النعمان قصائد عديدة في يوم ذي قار ، ومما قالته بعد الفوز :

رغمنا بعمرو انف كسرى وجنده
وما كان مرغوما بكل القبائل
وهذا قصارى الامر فاحملْ محسّراً
لكميّك ما بين الظبا والذوابل

وقد عاشت هند بنت النعمان وتزوجت المنذر بن الريان احد ابناء الملوك في أرض العرب ، واسلم زوجها واستشهد بين يدي رسول الله (ص) في وقعة أحد ، هو وحمزة رضي الله عنه . واتت هند سعد بن ابي وقاص في الحيرة بعد وقعة القادسية تشكو امرها اليه ، وقالت :

فبينا نسوس الناس والامر امرنا
اذا نحن فيهم سوقة نتنصّفُ
فافٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها
تقلّبُ تاراتٍ بنا وتصرّفُ

فاكرمها سعد وحفظ لها مقامها ، وعاملها معاملة العظماء ، وخرجت من عنده مغتبطة ، فسألها الناس ما صنع الامير ؟ فقالت :

صانَ لي ذمتي واكرم وجهي
انما يكرمُ الكريمَ الكريمُ

ومن شواعر العرب في هذه الحروب المصيرية (أم ابي جداية) ولها فيها قصيدة طويلة تهاجي بها المنصور وسيده كسرى ، وكذلك (هند بنت بياضة الايادية) التي قالت في الجموع التي وجهها كسرى الى قومها إياد :

دعينا لاضياف وقد نزلوا بنـا
رفيدة والقين بن جبـر وعامـر
وقـد نزلت بهراء خلف بيوتنـا
كمـا نزلت تبغي قرانا الاساور
فمـا ان لبثنـا ساعة بقراهم
وقد يحمد الرند السريع المبادر

فهي تطلق على العدو المحتل لارضهم اسم : الضيوف ، وتطلق على الموت الذي يذيقونه لهذا العدو اسم (القرى) وهو طعام الضيف . وهذا المعنى وارد في الشعر العربي قبل الاسلام على سبيل المجاز .

تلك كانت رحلة في اجواء الادب الذي خاض معارك العروبة المصيرية في جميع الساحات التي كان يحتلها الاجنبي الغاشم في ساحة اليمن وساحة العراق . واما الساحة الغربية ، ساحة الشام والاردن ، فان المصادر تذكر لنا اسم ملكة عربية هي الزباء ملكة تدمر ، ذاع صيتها في الغرب لدى الروم البيزنطيين وفي المصادر اليونانية ، وفي الشعر العربي ، حيث عرفت في هذه المواطن كلها غاضبة متمردة الحقت الضرر بجيوشهم التي تحتل الارض العربية ، فعملت على جلائها حتى الجأتها الى اقاصي البلاد التركية واضطرتها على عبور

البسفور ، ثم لما ضعف امرها اقتيدت اسيرة الى روما ، مقيدة بسلاسل الذهب كما تذكر المصادر الاوربية . وقال الشاعر العربي ، يذكر الموت وقوته على التصدي لهذه الملكة العربية القوية ، ويورد جانبا من حصونها التي شيدتها كخطوط دفاع عسكرية ضد الروم المحتلين ، قال المخبل السعدي :

طلب ابنة الزبا وقد جعلت لـه
دورا ومربـة لها انفاق
حملت له اجلا ولا يخشونـه
من اهل دومة رسلة ميثاق
حتى تفرعها بابيض صارم
عضب يلوح كانـه مخراق

وقد اورد الشاعر عدي بن زيد العبادي جانبا من دهائها في قصيدة له مثبتة في ديوانه . واذا كانت ذاكرة الرواة لا تعي شيئا من مفاخر هذا المجد العريق الا ببعض الشعر الذي اشرنا اليه ، وقد ورد في معرض عظة او ارشاد تجاه الموت والفناء الابدي المتسلط على البشر ، مشيرا الى عظمة هذه السيدة العربية التي قامت باقدم محاولة تحرير عربية يحتفظ بها التاريخ ، فان هذه الذاكرة لم تعد تعي شيئا لتخبرنا عن محاولة

« الملكة ماوية » التي لا تقل عن الزباء رغبة في تحرير الاجزاء الغربية التي بايدي الروم . واذا صدق تفسير (موسل) لما ذكره المؤرخ (اميانوس) وايراده كلمة امانيته Assanitae من انها تعني الغساسنة ، فان الملكة ماوية تعتبر من اوائل الملوك الغساسنة ، وبالأخص ما ذكره المؤرخون من ان الملك الذي كان قبلها عربي ، وانها وليت الحكم بعد وفاة زوجها . وقد كان في ملوك غسان سيدة عظيمة تعرف بمارية ، لعلها هي (ماوية) نفسها وقد حرف الاسم الى (مارية) وذكرها حسان بن ثابت في شعره متشرفا بها وباسمها وبابنائها :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

واذا لمسنا شيئا من ندرة شعر المعارك المصرية في التخوم الغربية ، فهي ظاهرة كان لها ما وراءها ، اذ جاء شعر التحرير (أو الفتوح

الشرقية) وافرا جدا ، وجاء شعر (اليرموك) قليلا اذا قيس بشعر (القادسية) ، وهي ظاهرة نتصدى لها بالدرس والتحليل في اثناء الحديث عن الادب ومعارك العرب المصرية في الاسلام .

القسم الثاني

أدب المعارك المصيرية في صدر الاسلام

لقد وقعت معركة ذي قار ، والرسول (ص) جديد عهد بدعوته ، فكان النصر العربي فيها دعما قويا للفكر العربي المتمثل بالاسلام الذي يعد صيغة سماوية تبلورت على مدى قرون طويلة ، منذ عهد ابراهيم الخليل عليه السلام . وقد ورد في المصادر ان الرسول بشر رفاقه بهذا النصر قائلا : (هذا اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم) ، وبذلك تكون هذه العبارة المروية في اقدم المظان الادبية اول عبارة في تراث العرب الادبي حول مساهمة الفكر في المعارك المصيرية في المرحلة الجديدة ، كما وضعت المؤشر الحقيقي لطبيعة الدعوة الاسلامية ذات المحتوى الفكري العربي ، والهدف التحرري القومي ، والابعاد الانسانية العميقة الرافضة لكل اشكالالهيمنة والاحتلال، لذلك لقيت الدعوةمعاداة شديدة منجانب الشعوبية والصليبية والصهيونية منذ فجر انبثاقها ، لما في طبيعة هذه الاتجاهات من

نوازع عنصرية حاقدة . ثم جاء التنزيل العزيز ليؤيد ذلك ، فقد ورد في ادب القرآن الكريم ما يشير صراحة الى موقف عربي اسلامي واضح من احتلال الفرس للارض العربية ، وصراع الامبراطوريات القديمة على هذه المغانم حيث اكدت سورة (الروم) الموقف عندما انتصر الفرس في احدى المعارك ، وجاءت السورة الكريمة لتنبئ بالانتصار على الروم بهزيمة قريبة تقع في بضع سنين ، ووقعت النبوءة . فكان لها أعمق الاثر في الاحداث اللاحقة .

ان هذا المنطلق الجديد للفكر العربي ، وضع ادب المعارك المصيرية في دروب التحرير الطويلة وفق ثلاثة محاور جوهرية : ادب الصراع ضد الوثنية التي تعني التجزئة لتكون التوحيدية الحنيفية بديلا لها وهي هدف العرب الاسمى ، ثم ادب الصراع ضد الحقد اليهودي وعدائهم التقليدي للعرب حيث تفجرت بؤره في (يثرب) ، ثم ادب الصراع التاريخي ضد الاحتلال الاجنبي المتسلط ويتمثل في الجيوش الغازية من جميع الاطراف . تلك كانت الصورة المتكاملة لوضع العرب المصيري كما تجسده نتاجاتهم الدائرة في قلب المعارك .

اما النقطة الجوهرية الاولى ، فقد جاءت في تسلسل النضال المصري في اولى المهمات القومية ، كما هي الآن في مقدمة الاهداف ثم يليها الحرية والاشتراكية ، وان كانت الاهداف تمتزج ببعضها في المراحل امتزاجا جدليا لا يمكن فصله او وضعه في مراحل مؤجلة . وكان الصراع ضد الوثنية ذات الصيغ المتعددة صراعا ضد اشكال التجزئة ، وجهادا في سبيل التوحيد العقائدي الذي يعني في اساسه وحدة دينية واقتصادية وسياسية واجتماعية ، مندمجة اندماجا وجدانيا وماديا معا . حقا كانت قبل الاسلام لقاءات عسكرية ذات محتوى ديني ، لكنها ضمن الاطار التقليدي للتجزئة ، وقد صورت لنا بعض النصوص الموروثة ، كقول احد الشعراء في الاسلام ، وهو الكميت الاسدي ، يصور لقاء قبليا ساهمت فيه الالهة مساهمة فعلية حيث قال :

وقد آلت قبائل لا تولي
مناةَ ظهورها متحرّفينا

وقال شاعر في الجاهلية يصف كيف تقدم مسيرلهم الههم (يغوث) ليغزوا مرادا :

فسار بنا يغوث الى مراد
فناجزناهمُ قبل الصباح

ونضرب مثلا آخر من يوم يقال له يوم الزويرين ، يوم كانت تميم تقاتل لتفرض عبادة إلهها على بعض القبائل ، بينما كانت القبائل الاخرى تدعو لآلهتها وتعمل لنصرها وفرض عبادتها . و (الزوير) إله ، ولعل له علاقة بالزيارة التقديسية لبيوت الآلهة او المواضع المقدسة او القصور المعظمة ، وهو اله كانت تميم تعظمه ، تنقلته معها الى المعركة تيمنا به واستجلابا للفال الحسن ، ونقل البكريون إلههم ايضا ، وهو شيخ من يقال له : الاصم ، وهي عبادة معروفة لدى بعض القبائل بتقديس المعمرين ، فكانت آلهة اشبه بما نقرأ مثلها في الملاحم الكونية ، العربية والاجنبية ، مثل كلكامش وانوما اليش والالياذة والاديسة ، فصور ذلك شاعرهم يومئذ حين قال :

كانت تميم معشرا ذوي كَرَمْ
غلصمة من الغلاصم العظُمْ
جاءوا بزوريهم وجئنا بالاصمّ
شيخ لنا من عهد عاد وإرم
شيخ لنا معاودٌ ضربَ البُهَمْ

ولما كان اللقاء الحاسم بين التوحيد والتجزئة ، واندحرت التجزئة المتمثلة في عبادة (اللات) وانتصر التوحيد المتمثل في عبادة (الله) قال شداد بن عارض الجشمي :

لا تنصروا اللات ان اللـــه مهلكهـا
وكيف نصـــركم من ليس ينتصـرُ
ان التي حرّقت بالنـار فاشتعلت
ولم تقـاتل لدى احجارها ، هَدَرُ
إن الرســـول متى ينزلْ بساحتكم
يظعنْ ، وليس بها من اهلها بشـر

ووقف شاعر مهزوم من فرسان التجزئـة ليعترف بهزائمه ازاء الانتصارات التي تسجلها قوى الوحدة ، فقال ، وهو ابو سفيان بن الحارث ، ابن عم النبي :

لعمـرك اني يوم احمـل رايتي
لتغلب خيـل اللات خيـل محمد
لكالمدلـج الحيران اظلـم ليلـه
بعيدا ارجّي ، حين اهدي واهتدي
هـداني هاد غير نفسـي وقادني
الى اللـه من طرّدت كل مطرّدِ
اصـدّ وانأى جاهـدا عن محمد
وادعى وان لم انتسب من محمد
همُ ما هـمُ من لم يقـل بهـواهم
وان كان ذا راي يُلَمْ ويفنَّـدِ
فقـل لثقيف لا اريـد قتالهـا
وقل لثقيف تلك ، غيري اوعـدي

فما كنت في الجيش الذي نال عامرا
وما كان عن جـرّا لساني ولا يدي
قبـائل جاءت من بلاد بعيـدة
نزائـع جاءت من سهام وسرددِ

ولقد تجلت وحدة الفكر العربية في وضـوح التوحيد العقائدي الذي نبذ الفكر الوثني المبني على التجزئة ، وهو ما كانت القبائل تدين به من تعدد في الآلهة ، فبلغت وجهات القبائل ثلاثمائة وستين وجهة وهدفا على عدد الآلهة المنصوبة في البيت الحرام وحوله ، فعمل الاسلام على تنكيسها وتحطيمها ليذيبها في صيغة واحدة واله واحد احد هو خالق الاكوان كلها . لذلك كان شعار المسلمين الاول هو : لا اله الا الله ، ثم كان شعارهم في معركة احد هو : اَحَدٌ احد . بينما كان ابو سفيان مثلا ، ينادي باله القبيلة فقط متجاوزا حتى الهة القبائل الحليفة، فيقول :

اُعلُ هُبَلٌ .. اُعلُ هُبَلُ

فياتيه جواب الرسول (ص) بصوت عمر بن الخطاب :

الله اعلى واجَلّ
الله اعلى واجَلّ

فيعود ابو سفيان الى القول :
لنا العزى ولا عزّى لكم
لنا العزى ولا عزّى لكم
فيامر الرسول (ص) ان يجاب :
الله مولانا ولا مولى لكم
الله مولانا ولا مولى لكم

هذا الحوار بطريقته الرجزية ، يعكس بوضوح صيغتين ، صيغة تجزئة وصيغة وحدة . أما الاولى فانطلاقة قبيلة ضيقة تدعو الى نصر اله قريش دون آلهة القبائل ، وكان ذلك اساس الصراع القبلي في بلاد العرب ، وكان يحاربهالاحناف التوحيديون الذين كانوا يومئذ المناضلين الحقيقيين في الساحة العربية ، ويتجلى في عدة لقاءات . ومن ملاحظة المادة الاساسية ، أو الخامات الاولية للاسلام ، نستشف جانبا قوميا للدعوة الاسلامية ، وواقعية الشعار الذي رفعته في وجه الخصوم ، وهو شعار (الوحدة) في كل شيء . الم يكن هدف الصيغة الجديدة التي جاء بها الرسول ، ان يتحرر العرب من واقعهم المفتعل غير الاصيل اولا ، المتمثل في الوثنية ومعطياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ثم التحرر من واقع غيرهم عليهم ثانيا ، المتمثل في احتلال الغير لارضهم ، وفرض الواقع المنتصر، بما فيه منمظاهر مرفوضة حتى في

داخل الامبراطوريات الغازية نفسها عندئذ يأتي الانطلاق بالرسالة نحو عالم ضائع متخبط ، ليهتدي بها ؛ فكانت الرسالة للعرب قدرا ، وللعالم اختيارا . وجعل الاسلام (الوحدة) اساسا لميدانه ؛ فالله عز وجل ، واحدٌ احدٌ ، فنفى الوثنية لانها تجزئة وتعدد . واللغة العربية كتابةً وتحدثا ، واحدةٌ موحدةٌ لا دخيل فيها ولا اختلاف في تراكيبها ، والعرب امةٌ واحدةٌ ، فنفى كل مظاهر العصبية والقبلية والفردية في اكثر من آية واحدة . وارض العرب واحدة لا يساوم عليها ولا يتهاون في استردادها ان اغتصبت ولا يقعد عن القتال في سبيل تحريرها ، فكان الجهاد وحروب التحرير والفتوح الاسلامية فرضا من فروض الاسلام .

ان هذا المظهر الوحدوي في الفكر الاسلامي ، سيشاهد عيانا في سيرة الرسول منذ نعومة اظفاره ، وسيعكس طوابعه على الشعر فيما بعد، فكان الشعر يسير حثيثا نحو تحقيق هدف التوحيد ، فكان ابرز موقف له هو صدّه لتيار القبائل المفعم بالروح العصبية ، وكان هذا التيار قد اخذ يتدفق على يثرب (المدينة) مستخدما اسلوب التأثير الادبي لكي يتفوق على تيار الوحدة القومية والتوحيد العقائدي كوسيلة للتمويه بالمقولة الزائفة عن ضعف الشعر لدى المسلمين ، وبالاخص كون قائد المسيرة

ليس بشاعر ، الا ان الشعراء ومن ورائهم قوة الدعوة التوحيدية ومتانة الفكرة الرافضة للقبلية والعنصرية والداعية الى وحدة العرب ، وقفوا في وجه تيار القبائل ، فسجل لنا التاريخ عدة احداث من هذا الامتحان العسير ، لعل ابرزها ما قامت به بنو تميم حين اقبلت بوفد عظيم من شعرائها وخطبائها واقتحمت المدينة بهم لتفاجىء الرسول دون ان يؤذن لهم بذلك ، فجعلوا يصيحون من وراء الحجرات ان اخرج الينا يا محمد . فاذاه صياحهم فخرج اليهم ، فقالوا : جئناك لنفاخرك ، فاذن لشاعرنا وخطيبنا . قال : نعم ، اذنت لخطيبكم فليقل . فقام اليه عطارد بن حاجب ، فافتخر بقبيلته دون العرب ، فندب الرسول له ثابت بن قيس بن شماس ، خطيب الرسول ، فامره ان يجيبه ، فحمد الله واثنى عليه ، وافتخر بالرسول وبالعرب كلهم . ثم قالوا : يا محمد ائذن لشاعرنا . فقال : نعم . فقام الزبرقان بن بدر ، فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
عند النهاب وفضل العز يتبعُ
وكم قسرنا من الاحياء كلهم
عنو النهاب وفضل العز يتبعُ
فلا ترانا الى حي نفاخرهم
إلا استقادوا وكاد الراس يقتطعُ

إنا ابينا ولن يابى لنا احد
إنا كذلك عند الفخر نرتفعُ

وكان حسان بن ثابت غائبا ، فبعث اليه رسول الله ، فامره ان يجيبه ، فقال :

ان الذوائب من فهر واخوتهم
قد بيّنوا سنةً للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم اذا حاربوا ضرّوا عدوّهم
او حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا
اكرم بقوم رسول الله شيعتهم
اذا تفرّقت الاهواء والشيعُ

فلما فرغ حسان من قصيدته ، وهي في ابيات ، قال الاقرع بن حابس : « وابي ان هذا الرجل لمؤتى له . لخطيبه اخطب من خطيبنا ، ولشاعره اشعر من شاعرنا ، واصواتهم اعلى من اصواتنا » ويلاحظ في هذه الرواية التي اوجزنا وقائعها ، ان شعر التميميين فخر بانفسهم وقبيلتهم ، بينما لم يفخر حسان بن ثابت باهله وعصبيته ، بل اتخذ الفهريين ، اجداد الرسول ، رمزا لمديح الفكرة الاسلامية ، لان اجداد الرسول ، ابتداءً من عبدالمطلب وهاشم وعبدمناف وقصي الى فهر ، كانوا يدينون بالحنيفية ، دين ابراهيم

الخليل ، دين التوحيد ضد التجزئة الوثنية والتفرق العقائدي . فكان فخر حسان منصبا على الفكر وعلى العقيدة وذلك بذكره سنّة الاسلام المتبعة . مع أن حسان بن ثابت ، عندما بعث الرسول في طلبه ، سوّلت له نفسه ان يفخر بقومه الخزرجيين قال حسان : فلما جاءني رسوله [اي رسول رسولُ الله (ص)] فاخبرني انه انما دعاني لاجيب شاعر بني تميم ، خرجت وانا اقول :

منعنا رسول الله اذ حلّ وسطنا
على كل باغ من معد وراغم
منعناه لما حلّ بين بيوتنا
باسيافنا من كل عاد وظالم
ببيت جرير عزّه وثراؤه
بجابية الجولان وسط الاعاجم
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم

لكن حسانا اعرض عن هذا الفخر القبلي ، مع ما فيه من مدح للرسول ، وسلك طريق الالتزام العربي الجديد وفق الصيغة الاسلامية ، فاتخذ من الفهريين رمزا للعرب ووحدتهم ودعوتهم الى توحيد القيادة ، واتخاذ هدف واحد عند التوجه في الصلاة والاذان والكعبة . ان شعر الوفود يمثل الجانب القبلي الفردي من الشعر العربي بالرغم من جمال سياغته وفنيته العالية ، الا ان ردود

المسلمين عليه تعد تصحيحا لمسيرته وارغاما لنفسه ليلتزم في معطياته ، ويمثل في جادة الصواب وطريق الوحدة ، فكان النصر لشعراء الدعوة العربية الموحدة ، والهزيمة لدعاة القبلية والعنصرية والتجزئة . ولا يخفى ، ان ثورة الرسول التوحيدية دينا ، والوحدوية جنسا ، كان الهدف من ورائها ان تنضم القبائل كلها تحت لواء الامة العربية باعتبارها جنسا واحدا ، الا ان بعض الشعراء كانوا يمثلون قمة التذبذب العقائدي بين التجزئة القبلية والوحدة القومية . ولم تتحقق للعرب هذه التوحيدية الدينية بالغاء التجزئة الوثنية ، وهذه الوحدة السياسية بالغاء التكتلات القبلية ، بلمسة سحرية ، كما يتوهم البعض ، وانما ظلت بدوات منها في اشعارهم وتصرفاتهم حتى كانت الانتكاسة الكبرى في ايام الردة ، فانفرط عقد الوحدة مرة اخرى ، فعاد على ماكان عليه الاسلام بل اشد سوءا ، وعادت القبائل الى عزلتها الفردية مسترجعة ذكريات الغزو والسلب ومظاهر التمزق الوثني ، فتوقفت حركة التحرير ، ووثب العدو المتربص وراء الحدود من روم وفرس وحبش على اجزاء من الوطن فاحتلته ، والبت اطراف اخرى على التمرد في داخل الوطن . ولولا ان الرسول (ص) كان قد احكم بناء القلب ، وخلايا التنظيم في عاصمة وطن

الوحدة ، لانتهى الامر الى غير رجعة ، لكنه ببعض المعارك المصيرية التي خاضها ضد حصون الوثنية في (بدر) و (احد) و (الرجيع) و (الخندق) و (الحديبية) و (مؤتة) ويوم (فتح مكة) و (تبوك) استطاع ان يترك للعرب اساسا لا يتاثر بالاطراف التي لم تحرر بعد بشكل تام ، فكان للادب دور متميز بفاعليته في الاحداث المذكورة . وقد سبق ان استشهدنا بالحوار الرجزي في يوم احد بين قوتين متصارعتين ، ولو احصينا عشرات القصائد والمقطوعات الشعرية والامثال والاقوال والخطب التي تشكل ادب المعركة المصيرية بين الوحدة وبين التجزئة ، لخرجنا بمحصلة جديدة في معرفة طبيعة هذا الادب الذي حسم المعركة لصالح (التوحيد) منذ اول لحظة حتى كان اللقاء اللاحق في يوم احد . ويتوزع شعر القوتين بين قصائد ومقطّعات قيل بعضها في اوان الحرب وشدة اوارها ، وقيل البعض الآخر بعد ذلك ، اما في صورة مهاجاة او منافرات على الطريقة الجاهلية ، واما في صورة مراث انطلق بها الطرفان يؤبنان قتلى بدر ، لكن اكثر هذه المراثي وثنية ، لان النصر كان فيها للتوحيد ، ودارت الدائرة على الوثنيين فتركوا في (القليب) (قليب بدر) وهو بئر ، صرعى كثيرة ، بعضهم

من رؤوس قريش وساداتهم . والملاحظ في هذا الشعر ان ما نطق به الوثنيون يدور في اطر عقائدية ضيقة كالفخر القبلي او المديح الجاهلي او الرثاء التقليدي ، وبالاخص رثاء النسوة لابائهن او اخوتهن او ازواجهن . وقد اوضح لنا الحوار الذي جرى بين رسول الله وبين ابي سفيان في اول يوم (أحد) صورة صادقة لطبيعة الفكر الذي يبشر به الطرفان . وساجتزيء بعض اشعار (بدر) موضحا الفرق بين الاتجاهين المتضادين ، فمن ذلك قول حسان بن ثابت :

فما نخشى بحول الله قوما
وان كثروا واجمعت الزحوفُ
اذا ما ألبوا جمعا علينا
كفانا حدَّهم ربٌّ رؤوفُ
سمونا يوم بدر بالعوالي
سراعاً ما تضعضعنا الحتوفُ
فلم تر عصبة في الناس انكى
لمن عادوا اذا لقحتْ كشوفُ
ولكنّا توكّلنا وقلنا
مآثرُنا ومعقلُنا السيوفُ
لقيناهم بها لما سَموْنا
ونحن عصابةٌ وهمُ الوفُ

بهذا الوضوح واللفظة المؤمنة يعبر حسان عن معتقده ونصره ، بينما يعبر شداد بن الاسود الليثي عن مثل لم تعد بذات فاعلية في مجتمع ينشد الخلاص والتحرر والتوحيد ، وذلك في قوله ذاكرا زوجته في يوم بدر :

تحيى بالسلامة امُ بكر
وهل لي بعد قومي من سلام
فماذا بالقليب قليب بدر
من القينات والشرب الكرام
وماذا بالقليب قليب بدر
من الشيزى تكلل بالسنام
وكم لك بالطوى طوى بدر
من الحومات والنعم المسام
وكم لك بالطوى طوى بدر
من الغايات والدسع العظام
واصحاب الكريم ابي علي
اخي الكاس الكريمة والندام
وانك لو رايت ابا عقيل
واصحاب الثنية من نعام
اذا لظللت من وجد عليهم
كام السقب جائلة المرام
يخبرنا الرسول لسوف نحيا
وكيف حياة اصداء وهام

ولا حاجة بنا للتعليق على معطيات الابيات ، لكنني احب ان اشير الى البيت الاخير منها ، حيث انكر الشاعر فكرة العودة الى الحياة بعد الموت مرة ثانية ، و فكرة البعث والنشور ، وقد كان الشاعر قد اسلم ثم ارتد قبيل معركة بدر ، لذا فهو ملم ببعض اطراف الفكر الجديد ، فذكره في شعره منكرا له . ومثل هذا الاتجاه قول عمرو بن العاصي في يوم احد :

خرجنا من الفيفا عليهم كاننا
مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا
لدى جنب سلع والاماني تصدق
فما راعهم بالشر الا فجاءة
كراديس خيل في الازقة تمرق
ارادوا لكيما يستبيحوا قبابنا
ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا اومنت قبل ما ترى
اذا رامها قوم ابيحوا واحنقوا
كان رؤوس الخزرجيين غدوة
لدى جنب سلع حنظل متفلق

لكننا حين ننصت لصوت كعب بن مالك الانصاري نجد التوجه يختلف :

ابلغ قريشاً وخير القول أصدقه
والصدق عند ذوي الالباب مقبولُ
إنا قتلنا بقتلانا سراتكم
اهلَ اللواء ففيما يكثر القيل
ويوم بدر لقيناكم ، لنا مددٌ
فيه مع النصر ميكال وجبريلُ
ان تقتلونا فدين الحق فطرتنا
والقتلُ في الحق عند الله تفضيل
وان تروا امرنا في رايكم سفهاً
فرايُ من خالف الاسلامَ تضليلُ

ولا يختلف الامر فيما يخص الرثاء لدى قوى التجزئة . فقد طالعتنا قصيدة الاسود بن شداد الليثي قبل قليل بحشد من مظاهر الترف والدعة والسرف ، والفاظ الخمرة والغناء والعبث في تصوير حالة الحرب ، كذلك ترد هذه المظاهر الطبقية والالفاظ المنافية لطبيعة الشاعر المجاهد والعقائدي عند رثاء رفيقه. ومما يلفت نظر الباحث في اشعار بدر واحد ، ان الرثاء فيها متناوب ، حيث يكثر رثاء الوثنيين لقتلاهم في يوم بدر ، ويكثر رثاء التوحيديين لقتلاهم في يوم (أحد) . ولقد استأثر استشهاد حمزة بن عبدالمطلب عم النبي بقسط وافر من حصة الرثاء ، ولكي تتضح صورة الرثاء بمنظورها الجديد في الاسلام نسوقُ

مثلا لها ، حيث رثى حسان بن ثابت ، خبيب بن عدي شهيد يوم (الرجيع) :

صلى الإله على الذين تتابعوا
يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
راسُ السرية مرثد واميرُهم
وابن البكير إمامهم وخبيبُ
وابنٌ لطارقَ وابنُ دثنة منهم
وافاهُ ثَمّ حمامُهُ المكتوبُ
والعاصمُ المقتولُ عند رجيعهم
كسبَ المعالي إنه لكسوب
منعَ القادةَ ان ينالوا ظهرَهُ
حتى يجالدَ إنهُ لنجيب

الادب ومعاركه ضد العنصرية الصهيونية في زمن الرسول :

ان الادب الجديد الذي طرحته كتائب المعركة المصيرية بين التجزئة والتوحيد ، لتصل بنا عفويا فتوصلنا بالمحور الثاني من ادب المعارك المصيرية في صدر الاسلام ، وهو الوضع المتفجر بين العرب الطالعين بالوية الجهاد العقائدي لوضع حد لجميع مساوىء الحالة المحزنة التي صارت اليها الامة العربية ، وبين اليهود الاسرائيليين الذين انطووا على الحقد القاتل للعرب ، يترصدون الفرصة المناسبة

عند قوتهم وضعف العرب لينقضوا عليهم . فلما بعث الرسول (ص) عادت الى اذهان اليهود ذكريات الماضي السحيق ، وجهاد (موسى) و (عيسى) عليهما السلام في خلق امة واحدة موحدة ، ليس فيها اضطهاد واحتكار وتسلط ، وهو امر ينافي النفسية التي جبلت عليها (بنت صهيون) التي سكبت دمها العنصري في هذه الطغمة الباقية ، فكان اليهود يتحينون الفرص للايقاع بالرسول (ص) كما اوقعوا بموسى وعيسى قبله ، وانهاء الواقع الثوري الجديد للعرب ، وهو واقع ينذر مصالحهم المالية الاحتكارية بالفناء ، فجرت منهم محاولات اولية في تفتيت هذه الفكرة المتبلورة عبر آلاف السنين ، فحصلت لقاءات فكرية بينهم وبين الرسول (ص) مذكورة في الكتب ، وتعكس كتب الادب جانبا منها ، ضمت نقاشا عميقا في طائفة من القضايا الحيوية يومئذ ، كان قصد اليهود الاساسي منها في محاولة حرف الفكر العربي الجديد المتمثل في الصيغة الاسلامية ، والعمل على جر المبادىء الجديدة الموحاة الى الرسول (ص) من السماء الى صيغ توراتية ، لتكون اشبه بالمساومة الفكرية ، فكان الرفض القاطع ، ثم فضح محاولاتهم وتسفيه ارائهم ، وابراز الزيف في معتقداتهم وكتبهم التي لم تعد مقدسة ولا منزلة من السماء بعد ان

مسخوا كل الشرائع والمبادىء التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام . فكان هذا الموقف من اكبر المواقف المصيرية التي ساهم فيها الادب بقسط وافر . ولا اريد ان اتطرق الى القضايا الفقهية والتشريعية والعقائدية الصرفة ، وانما ساكتفي بالجانب الادبي ، حيث نشب الصراع واحتدم حاميا على صعيد الشعر . ففي يوم بدر ، وبعد انتهاء المعركة بعث الرسول بزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة الى المدينة يعلنان للناس اسماء من استشهد من المسلمين ومن قتل من المشركين . فقال كعب بن الاشرف وكان شاعرا من طي وكانت امه يهودية من بني النضير : « احق هذا ؟! اترون ان محمدا قتل جميع هؤلاء الذين يسميهم لنا هذان الرجلان — يعني زيدا وابن رواحة — فهؤلاء اشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم ، لبطن الارض خير من ظهرها » فلما تيقن كعب الخبر ، خرج حتى قدم مكة ، فانزلوه واكرموه ، وجعل يحرض على رسول الله (ص) وينشد الاشعار ، ويبكي اصحاب القليب من قريش ، الذين اصيبوا ببدر :

طحنَتْ رحى بدر لمهلك اهله
ولمثل بدر تستهلُّ وتدمعُ

قتلتْ سراةَ الناس حول حياضهم
لا تبعدوا إن الملوك تصرّع
كم قد اصيب به من ابيض ماجد
ذي بهجة ياوي اليه الضيّع
طلق اليدين اذا الكواكب اخلفتْ
حمال اثقال يسود ويربع
ويقودُ اقوام اشرّ بسخطهم
ان ابن الاشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الارض ساعة قتّلوا
ظلت تسوخ بارضها وتصدّع
نبئتُ ان بني المغيرة كلهم
خشعوا لقتل ابي الحكيم وجدّعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبّه
ما نال مثل المهلكين وتبّعُ
نبئت ان الحارث بن هشامهم
في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما
يحمي على الحب الكريم ، الاروع

فرد عليهم حسان بن ثابت :
أبكى لكعبٍ ثم عُلّ بعبرةٍ
منه وعاش مجدّعا لا يسمعُ ؟
ولقد رايت ببطن بدر منهم
قتلى تسحّ لها العيون وتدمع

فابكي فقد ابكيت عبداً راضعا
شبه الكليب الى الكليبة يتبع
ولقد شفى الرحمن منا سيداً
واهان قوما قاتلوه وصرّعوا
ونجا وافلت منهم مَنْ قلبهُ
شعف يظل لخوفه يتصدّع

ثم رجع كعب بن الاشرف الى المدينة ، نشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فالتقى فرسان من المسلمين به وبجماعته ، والتحموا في قتال اسفر عن مقتل كعب وجرح احد الفرسان ، فلما اصبح الصباح خافت يهود من هذه الوقعة ، فقال كعب بن مالك :

فغودر منهم كعب صريعا
فذلت بعد مصرعه النضيرُ
على الكفين ثم وقد علته
بايدينا مشهّرة ذكورُ

وقال حسان بن ثابت :
للهِ درّ عصابة لاقيتهم
يا بن الحقيق وانت يا بن الاشرفِ
يسرون بالبيض الخفاف اليكم
مرحاً كاسْدٍ في عريف مغرف

حتـى اتوكـم في محـل بلادكـم
فسقوكـم حتفـاً ببيض ذُفُف
مستضرين لنصـر ديـن نبيهـم
مستصغرين لكـل امـر مجحف

وقد كان القضاء على كعب بن الاشرف قبيل يوم احد . وقد اعطت هذه الوقعة للعرب مؤشرا خطيراً فيما يخص مصيرهم القومي والسياسي والعقائدي ، فلم يكن كعب بن الاشرف يشكل بؤرة التآمر وحده ، بل ظهرت بؤر كثيرة ، منها بؤرة المنافقين وبعض رجال القبائل السائرين بين القوتين المتصارعتين باكثر من ولاء ، فهم مع طواغيت مكة من جهة ومع احبار يهود من جهة ثانية ، ثم مغازلة المسلمين من طرف ثالث . وكان هناك ما يعرف بالاحزاب الذين يؤْذنُ وضعهم بانفجار قريب ولقاء حاسم مع المسلمين ، لكن بؤرة التحالفات [الوثنية الاسرائيلية] كانت اخطر هذه الظواهر ، لذلك لم يفد مقتل كعب بن الاشرف ، حليف اخواله اليهود كثيرا ، وقد برهنت ايام « احد » على ذلك ، وجاءت وقعة الخندق فزادت في البرهان ، فظهرت الحاجة الى التخلص من راس كبير آخر ، كان يخطط مع كعب بن الاشرف ويعملان معا ضد طموحات العرب المشروعة ، لذلك رأت قيادة العرب يومئذ ، تجاه هذا التجني والاعتداء الآثم ، ان تسكت هذه

الاصوات المجرمة ، فتدبت لها خمسة من الرجال قاموا بما يشبه العملية التي قام بها رفاقهم في بتر دابر العدوان المتسلط عليهم من كعب بن الاشرف، فنهض الفدائيون الخمسة بعمليتهم بكل بطولة ، وصفتها الكتب المختصة ، فقال حسان بن ثابت في قتل سلام بن ابي الحقيق وقبله كعب بن الاشرف :

للـه در عصـابة لاقيتهـم
يا بن الحقيق وانت يا بن الاشرف

وهي ابيات تقدم الاستشهاد بها . وقال عبدالله بن رواحة :

لعمري لقد حكّت رحى الحرب بعدما
اطارت لؤيـاً قبـلُ شـرقا ومغربـا
بقيـة آل الكاهنـين وعـزّها
فعـاد ذليـلاً بعدما كان اغلبـا
فطـاح سـلام وابـن سـعية عنـوة
وقيـدَ ذليـلاً للمنايـا ابـن اخطبـا
واجلب يبغي العـز والـذل يبتغـي
خـلاف يديـه ما جنى حين اجلبـا
كتارك سهل الارض والحَزْن همـه
وقد كان ذا ، في الناس اكدى واصعبا
فبعـدا وسحقاً للنضـير ومثلهـا
ان اعقب فتـحٌ او إن اللـه اعقبـا

وكان الواقع العربي يجتاز اصعب ظروفه في تلك الايام ، فلم تكن قوى الوحدة والتوحيد الا بضعة الوف تواجه خطراً يهودياً من الداخل ومن الاطراف ، وتحالف القبائل في الانحاء القريبة والبعيدة ، وحشود الوثنية بزعامة مكة ومن دخل في عهودهم ومواثيقهم من (الحُمس والحِنّة) على حد سواء ، فكان الموقف يستدعي الحذر الى اقصى درجاته ، ويستوجب الحكمة الى ابعد حدودها . ومع ان الضربات جاءت موفقة وسديدة الا ما يعكرها في (احد) لكن الدلائل اشارت بقوة الى وجوب التصدي للمحاولات اليهودية في الساحة العربية نفسها قبل ان يتفاقم الامر ، لا سيما وان نتائج (احد) تتعلق اجزاء كبيرة منها في ذمة المواقف الاسرائيلية الخبيثة . لذلك وجد الرسول القائد انه بعد حادثة (بئر مؤونة) المحزنة ، ان غدر اليهود لم يعد امرا يسكت عليه ويترك دون عقاب او بتر لاطرافه .

فقد كانت بنو عامر قد غدرت بالصحابة العلماء الذين ذهبوا لتعليمهم ، فصلبتهم جزاء ما يقدمونه لابنائها من تنوير عقولهم ، وكان عامر بن الطفيل هو الذي فعل ذلك ، فجعل حسان بن ثابت يثير عليه عمه ابا براء عامر بن مالك (ملاعب الاسنة) للعهد الذي بينه وبين المسلمين ، ولان

عملية عامر بن الطفيل تعد انتقاصا من قدر (ملاعب الاسنة) :

بني ام البنين الم يرعكم
وانتم من ذوائب اهل نجد

تهكم عامر بابي براء
ليخفره ، وما خطأ كعمد

الا ابلغ ربيعة ذا المساعي
فما احدثت في الحدثان بعدي

ابوك ابو الحروب ابو براء
وخالك ماجد حكم بن سعد

لكن ابا براء لم يصنع شيئا اكثر من ان حمل على عامر بن الطفيل فطعنه فاخطأ مقتله ، ثم ظهر ان لبني النضير ضلعا في القضية ، فخرج اليهم رسول الله (ص) ، فلما وقف يكلمهم ، صعد يهودي الى سطح البيت الذي وقف الرسول الى جنب جداره ليلقي بصخرة ، قصد بها ان تصيب الرسول ، فاحبط الله غدرهم ، وحاصرهم الرسول حتى جلاهم الى ارض بعيدة ، فقال في ذلك ابن لقيم العبسي :

اهلي فداء لامرىء غير هالك
احل اليهود بالحسي المزنم

يقيلون في جمر الغضاة وبذلوا
(اهيضب عودي) بالودى المكتم
فان يك ظني صادقا بمحمد
تروا خيله بين الصلا ويرمرم
يؤم بها عمرو بن بهنة انهم
عدو وما حي صديق كمجرم
عليهن ابطال مساعير في الوغى
يهزون اطراف الوشيج المقوم
وكل رقيق الشفرتين مهند
توورثن من أزمان عاد وجرهم
فمن مبلغ عني قريشا رسالة
فهل بعدهم في المجد من متكرم
فان اخاكم فاعلمن محمداً
تليد الندى بين الحجون وزمزم
ندينوا له بالحق تجسم اموركم
وتسموا من الدنيا الى كل معظم
رسول من الرحمن يتلو كتابه
فلما انار الحق لم يتلعثم
ارى امره يزداد في كل موطن
علواً لامر حمه الله محكم

ولما وقف الامام علي بن ابي طالب (رض) ينشد العرب قصيدته في ادراك ثارهم من كعب بن الاشرف وسلام بن ابي الحقيق واجلاء بني النضير

لخيانتهم ، ويقال ان القصيدة لاحد المسلمين ، وقف الشاعر سماك اليهودي منذرا العرب بحرب لئيمة فقال :

فان تفخروا فهو فخر لكم
بمقتل كعب ابي الاشرف
غداة غدوتم على حتفه
ولم يأت غدراً ولم يخلف
فعل الليالي وصرف الدهو
ر يديل من العادل المنصف
بقتل النضير واحلافها
وعقر النخيل ولم تقطف
فان لا امت نأتكم بالقنا
وكل حسام معا مرهف
بكف كمي به يحتمي
متى يلق قرنا له يتلف
مع القوم صخر واشياعه
اذا غاور القوم لم يضعف
كليث بترج حمى غيلة
اخي غابة هاصر اجوف

ويلاحظ في القصيدة انعدام اللامة اليهودية في اسلوبهم الاعلامي الصهيوني الى اليوم ، حيث يذكر الشاعر زاعما ان العرب قطعوا اثمار النخل قبل

اوانها ويزيد في كذبه انهم عقروا النخيل ، ليضع في وهم الآخرين انهم قوم لا يرعون للحروب ذمة ، واليهود معروفون بعنصريتهم وحقدهم في محاربة الامم باقذر الاساليب . وعلى خلاف ما يرجف الشاعر اليهودي ، فقد كان الرسول (ص) اوصى المجموعة الفدائية التي خرجت لقتال كعب بن الاشرف وسلام بن ابي الحقيق ومحاصرة بني النضير الا يقتلوا طفلا ولا امراة ولا يؤذوا شجرة . واذا عدنا الى رواية قتل سلام بن ابي الحقيق في سيرة ابن هشام وجدناها تقول : « وخرج اليه خمسة نفرهم عبدالله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبدالله بن انيس والحارث بن ربعي وخزاعي بن اسود ، وجعل النبي من عبدالله قائدا لهذه المجموعة الفدائية ونهاهم عن ان يقتلوا وليدا او امراة » فلما وصلوا الى حصنه الحصين في خيبر ، وكان في علية يرتقى اليها بسلم يصعد عليه الى اعلى الغرف . فخرجت اليهم امراته ، فقالت : من انتم ؟ قالوا : ناس من العرب نلتمس الميرة . قالت : ذاكم صاحبكم ، فادخلوا عليه . قال : فلما دخلنا عليه ، اغلقنا الباب علينا وعليها لتكون معنا في الحجرة لكي لا تخبر بنا فصاحت امراته ونوهت بنا ، فابتدرناه باسيافنا ، فكنا نهتدي اليه في سواد الليل ببياض اهابه . ولما صاحت بنا امراته ، جعل الرجل منا

يرفع عليها سيفه ، ثم يذكر نهي رسول الله (ص) فيكفّ يده ، ولولا ذلك لفرغنا منه بليل . واذن فقد ابقت شهامة العرب على المراة ، وكادت العملية ان تخفق بسبب الابقاء عليها ، بل ان صياحها جعل يهود خيبر يخرجون والمشاعل في ايديهم يطلبون المجموعة في الظلام الى ان يئسوا ، فعادوا الى صاحبهم فوجدوه قد فاظ (اي هلك) وامراته تدني المصباح من وجهه .

ولما انتهت (الخندق) وظهرت الخيانة واضحة للعيان ، لم يكن من انهاء امر قريظة بد ، بعد الذي فعلته في نقض العهود ومساندة الوثنية ، وتعريض امن العرب المسلمين لافدح المخاطر . فسار اليهم الرسول وقد اعطى الراية للامام علي (رض) فكانت ، كما وصفها يهودي قرظي قبل ان تقطع رقبته : « كتابا وقدرا وملحمة » ثم حبس فضربت عنقه ، تخاطبه جبل بن جوال الثعلبي ، وكان ذبيانيا غطفانيا يهوديا ، اسلم وصارت له صحبة ، راى القرظي وهو يحيى بن اخطب وعليه حلة فقاحية (تضرب الى الحمرة) وكان من اكثر الناس عداء للعرب ، يقول ذلك ، قال جوال :

لعمرك ما لام ابن اخطب نفسه
ولكنه مَنْ يخذل الله يُخذلِ

لجاهد حتى ابلغ النفس عذرها
وقلقل يبغي العز كل مقلقل

وقال حسان بن ثابت في هذا النصر العربي ضد اعتداءات العنصرية اليهودية وخرقهم لعهودهم :

لقد لقيت قريظة ماساءها
وحلّ بحصنها ذلّ ذليلُ
وسعد كان انذرهم بنصح
بان الهكم ربّ جليلُ
فما برحوا بنقض العهد حتى
فلاهم في بلادهم الرسول
احاط بحصنهم منا صفوف
له من حَر وقعتهم صليلُ

وقال جبل بن جوال الثعلبي ــ قبل اسلامه وصحبته ــ يبكي قريظة والنضير وقينقاع والمجد اليهودي الضائع منذ العهود الغابرة ، وهي تعبر بعمق عن روح العنصرية الاسرائيلية ، والحقد الاسود الذي يكنونه للعرب عامة ولسكان يثرب من الاوس والخزرج بخاصة ، ويتذكر مصرع سلام بن ابي الحقيق :

الا يا سعد سعد بني معاذ
لما لقيت قريظة والنضيرُ

لعمرك ان سعد بني معاذ
غداة تحملوا لهو الصبورُ
فاما الخزرجي ابو حباب
فقال لقينقاع لا تسيروا
وبدّلت الموالي من حضير
اُسيداً والدوائر قد تدور
واقفرت البويرة من سلام
وسعية وابن اخطب فهي بورُ
وقد كانوا ببلدتهم ثقالاً
كما ثقلت بحيطان الصخور
فان يهلك ابو حكم سلام
فلا رثّ السلاح ولا دثور
وكل الكاهنين وكان فيهم
مع اللين الخضارمة الصقور
وجدنا المجد قد ثبتوا عليه
بمجد لا تغيبه البدور
اقيموا يا سراة الاوس فيها
كانكم من المخزاة عور
تركتم قدركم لا شيء فيه
وقدرُ القوم حاميةٌ تفور

وكان هذا آخر العهد بالمعاقل اليهودية ، وكان ضربها ودكّ حصونها قد اعطى ثماره العاجلة لنضال العرب التوحيدي عقيدة والوحدوي جنسا وانتماءا

وشعورا ، حيث بدات حركة التحرير تلهب الارض العربية في كل موضع واتجاه ، لان العامل المعوّق الكبير كان اليهود العنصريين كما هي الصهيونية اليوم ، وكانت هذه الطغمة قد تحالفت مع وثنيي مكة ضد الوحدة العربية ونضالها المقدس . وقد نعى حسان بن ثابت لليهودية مصيرها الذي رسمته لنفسها بسوء جوارها وبتكرر عدوانها وخياناتها ؛ وانذر الوثنيين بالمصير نفسه :

لقد لقيت قريظة ما ساءها
وما وجدت لذل من نصير

اصابهم بلاء كان فيه
سوى ما قد اصاب بنو النضير

غداة اتاهم يهوي اليهم
رسول الله كالقمر المنير

له خيل مجنّبة تعادى
بفرسان عليها كالصقور

تركناهم وما ظفروا بشيء
دماؤهم عليها كالغدير

فهم صرعى تحوم الطير فيهم
كذاك يُدان ذو العَنَد الفجور

فانذر مثلها نصحاً قريشاً
من الرحمن إن قبلت نذيري

ولست ابتغي الاستطراد وراء جميع الاشعار التي قيلت في هذا المحور الذي كانت نهايته قد سجلت النهاية المبكرة لحصون الوثنية التي كانت تجد قوتها ودعمها لدى دهاقين المال اليهود ودسائسهم ومكرهم وخديعتهم مع العرب الموحدين . كما لا ابتغي عرض كل جوانب الادب التي قيلت في هذا المجال لانها تفوق الحصر وتستغرق الصفحات لما احتفلت عليه من قصص وامثال وخطب واشعار وكذلك الادب المقاوم الذي انطلقت به الحناجر العربية المجاهدة ضد التمزق الوثني ؛ لانه ادب غزير جم يستوجب الدراسة والاستقصاء . لذلك وجدت ان انتقل الى المحور الثالث في ادب العرب ومعاركهم المصيرية ، وهي معارك المجاهدين ضد محتلي ارضهم العربية . وهذا القسم يربطنا بالعملية التحريرية الكبيرة التي بدا بها الآباء منذ عصر ما قبل الاسلام ، وانتهى بيوم ذي قار .

الادب يتصدى من جديد لانتكاسة الوحدة

وكان لنا في المحور الثالث من هذه الدراسة عودة الى انتكاسة الوحدة التي حققها العرب تحت القيادة الثورية الجديدة ، وفق منظور الصيغة العربية الاسلامية ، وهي انتكاسة قادها نفر من رؤوس العرب ، تبعهم ناس ، بعضهم عن غفلة

وبعضهم عن عصبية ، فكانت البطولة العربية صامدة لضرب جبهة الانفصال والردة والتجزئة ، واعادة بناء الصرح العربي المتكامل الذي بدا زحفه نحو تحرير الاجزاء المقتطعة والمحتلة والمغتصبة من يد الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين والاحباش الاثيوبيين ، بعد أن جليت عنها البؤر العنصرية اليهودية . وقد صور شاعر اسلامي بوضوح ظلم الحكام الكسرويين والقيصريين مشيرا الى ذلك بشعره :

فان تسالينا فيم نحن فاننا
عصافير من هذا الانام المسحر
عبيد لحي حمير إن تملكوا
وتظلمنا عمال كسرى وقيصر
ونحن وهم ملك لحمير عنوة
وما ان لنا من سادة غير حمير

واذا كانت حروب التحرير قد جسدت الموقف القومي (الحقيقي للشعر العربي) فان بدايات التحرير كانت منذ ايام الردة القبلية ، وعلى وجه الخصوص بعد وفاة الرسول (ص) عندما انطلق صوت الشعر القبلي من عقاله ، بعد ان اسكتته النجاحات العظيمة التي حققها شعر الالتزام القومي . فهذا هو الحطيئة جرول بن اوس ،

الشاعر المرتد ، يؤلب الناس على القيادة العربية ، بعد ان حققت معجزة بعثهم وتوحيدهم :

اطعنا رسول الله ما كان بيننا
فيا لعباد الله ما لابي بكر
ايورثها بكراً اذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانه
وهلا خشيتم حِسّ راغية البكر
وان التي ساموكم فمنعتم
لكالتمر أو احلى اليّ من التمر

ولما هاجم الذبيانيون العاصمة ، مدينة الرسول ، ارتفع صوت الردة مرة اخرى ، يبارك لهم خطوتهم ، فقال الخطيل بن اوس اخو الحطيئة :

فدىً لبني ذبيان رحلي وناقتي
عشية يحذى بالرماح ابو بكر
ولكن يدهدى بالرجال مهينة
الى قدر ما إن يزيد ولا يجري
ولله اجناد تذاق مذاقه
لتحسب فيما عُدّ من عجب الدهر

وقد صور الحطيئة تحالف عبس وذبيان ضد المسلمين ايام الردة بعد حربهما الطويلة التي دامت

اربعين عاما وعرفت بايام داحس والغبراء ، وهي تسلط الضوء بقوة على جانب مظلم من حياة الامة في ذروة انقسامها ، لكن العجب في هاتين القبيلتين انهما اتحدتا لتقفا معا ضد البناء الوحدوي الناشيء الذي شاده الرسول وانتقل الى الرفيق الاعلى بصورة سريعة محزنة ملفتة للنظر . قال الحطيئة يفخر بهذا المظهر السلبي :

الم تر ان ذبيانا وعبسا
لباغي الحرب قد نزلا براحا
يقال الاحربان ونحن حي
بنو عم تجمعنا صلاحا
منعنا مدفع الثلبوت حتى
تركنا راكزين به الرماحا
نقاتل عن قرى غطفان لما
خشينا ان تذل وان تباحا

وكان ابو بكر (رض) قد اقسم ليقاتل المرتدين اشد قتال ثاراً لمن قتلوا من المسلمين ، فانطلق زياد بن حنظلة التميمي مجلجلا بصوته العربي المعبر عن جميع القبائل المتوحدة تحت راية العروبة والاسلام :

اقمنا لهم عرض الشمال فكبكبوا
ككبكبة الغزى اناخوا على الوفر

فما صبروا للحرب عند قيامها
صبيحة يسمو بالرجال ابو بكر
طرقنا بني عبس بادنى نباحها
وذبيان نهنهنا بقاصمة الظهر

ولا نتوغل في شعر الردة ، فهو مؤشر واضح لانتكاسة الشعر الملتزم ، وان كان تاثيره العاطفي على الناس ملموسا ، لانه يستثير ذكريات الماضي القريب ، وفيه كان الانسان خلوا من كل التزام وواجب ، حتى ان بعض العناصر ممن لم ترتد ، اندفعت وراء عواطفها الذاتية تبكي من نالتهم سيوف العرب من جيوش التحرير ، فكان لشعرهم اسوا الاثر في نفوس البعض . وتعد بكائيات الشاعر متمم بن نويرة في اخيه مالك بن نويرة صورة ناطقة لحالة شعرية فريدة ، فقد كانت اسمى الاوساط الثقافية ، حتى الرؤوس الكبيرة من مفاصل الدولة، تنصت بحزن الى ما كانت تفعله سيوف الوحدويين باجساد المرتدين ، فرويت عن هذا الواقع اخبار كثيرة ، بعضها فاسد .

وتدفع الردة ، المقاتلين العرب لاتمام معركة التحرير . وكانت الراية العربية الموحدة قد نكست امامها كل رايات القبائل التي تكتلت في كيانات معادية للثورة على عادتهم قبل الاسلام ، فكانت

كل قبيلة او كتلة سياسية ترفع راية ، بينما كان العرب المسلمون يرفعون راية واحدة . لقد ظهر للعرب الموحدين أن العناصر الاجنبية الدخيلة التي تضررت بالثورة بدأت تمارس ادوارا تخريبية بين القبائل ، وتحرض على القادة العرب في المعسكرات والمدن ، بل بلغت احقادها حدا ان هيات لاغتيال رئيس الدولة العربية الجديدة ، حتى ان الخليفة عمر (رض) بعد ان طعنه ابو لؤلؤة المجوسي ، سال عن قاتله ، فلما اخبروه باسمه الفارسي قال :

ــ « ما كانت العرب لتقتلني » . فارتفع صوت الشعر مرة اخرى نابذا كل سلبياته وتصرفاته العصبية ، متجها نحو التخوم الشرقية مقاتلا الى جانب السلاح الحربي ، حتى أصبح صوت الشعر يسمع على طول الدروب الى اقصى المدن الايرانية حتى سواحل البحار النائية ، فعادت الحناجر التي فقدت اصواتها الحقيقية الى حالتها الشعرية بعد فترة من الانقطاع والنضوب والضياع ، عاد الحطيئة المرتد الى الساحة العربية ، وعاد عمرو بن معد يكرب الى الصفوف العربية الموحدة ، وعاد غيرهما ممن نتنتهم ذكريات الماضي القريب المتسيب اللاملتزم. وكان سعد بن ابي وقاص قد امر الشعراء من امثال الشماخ بن ضرار وعبدة بن الطبيب والمغيرة

ابن شعبة وعاصم بن عمرو والحطيئة وعمرو بن معد يكرب والنابغة الجعدي وقيس بن مكشوح والقعقاع بن عمرو التميمي وغيرهم ان ينهضوا ليحرضوا الناس على القتال ، فانطلقوا يلهبون سماء المعركة باشعارهم ، ومن ورائهم الرجاز والخطباء والوعاظ والقصاص والعلماء يشعلون اوار الحماس . وكان الجنوب العربي مطمع الفرس ، والتخوم الغربية مطمع الروم ، وكان الرسول (ص) اول من افتتح صفحة هذه الحروب ضد الروم ، عندما حرك بعض الالوية العسكرية باتجاه المواقع الشمالية القريبة من حدود العرب للثار من امير (بصرى) الذي قتل الحارث بن عمير الازدي ، وكان النبي قد ارسله ليبشره بالاسلام ويهديه الى عروبته ودينه ، ثم كان للحملة هدف آخر هو تامين التخوم العربية ضد الروم الذين ثاروا بتحريض اليهود بعد اجلائهم عن المدينة وتيماء وفدك في الوقعات التي ذكرت قبل قليل ، فجعلوا وجهتهم عرب فلسطين بعد عرب يثرب ، ليفسدوها ، وفعلا تم لهم ذلك . وكان وراء الحملة هدف ثالث هو الوصول الى (مآب) . وقد واكب الشعر ذلك حيث قال احد قادة الحملة عبدالله بن رواحة قبل استشهاده ، وهو يوم (مؤتة) :

فلا وابــي ، (مآب) لآتينهـــا
وان كانـت بهـــا عـــرب وروم

الشعر في جبهات التحرير

وقد واكب الشعر هذه الحملة التي اصبحت فاتحة لتحرير التخوم الغربية حيث ظهرت (ساحة اليرموك) بوجهها الناصع في اعمال العرب الادبية. وكان قائد الحملة وامير لوائها زيد بن حارثة ، فان اصيب فجعفر بن ابي طالب ، فان اصيب فعبدالله بن رواحة فان اصيب فليتربص المسلمون برجل من بينهم يولّونه القيادة عليهم . فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج ،وهم ثلاثة آلاف ، فلما فصل الجيش ودّعهم الناس ، فلما وقفوا اللحظات الاخيرة ، بكى عبدالله بن رواحة ، فقالوا : « ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ ! » قال : « اما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكني سمعت رسول الله(ص)يقرأ من كتاب الله عزوجل ، يذكر فيها النار « وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلست ادري كيف لي بالصدر بعد الورود . فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردّكم الينا صالحين ، فقال عبدالله بن رواحة :

لكنني اســأل الرحمــن مغفــرة
وضربةً ذات فــرع تقذف الزبــدا

او طعنةً بيدي حــران مجهــزةً
بحربــة تُنفذ الأحشــاء والكبــدا
حتى يقــال اذا مرّوا على جــدثي
ارشده الله مــن غازٍ وقد رشــدا

ثم ان القوم تهيئوا للخروج ، فاقبل عبدالله ابن رواحة على الرسول فودعه وقال :

انت الرسول فمن يحرم نوافلــه
والوجه منه فقــد ازرى به القدر
فثبت الله ما اتــاك مــن حســن
في المرسلين ونصراً كالذي نُصِروا
اني تفرسـت فيــك الخير نافلــةً
فراسةً خالفت فيك الذي نظــروا

فلما خرج الرسول ومعه القوم لوداعهم قال ابن رواحة مرة اخرى :

خلّفَ السلامُ على أمرئٍ ودعتهُ
في النخــل خير مشــيّع وخليــل

قال زيد بن ارقم : ثم مضى الجيش ، وكنت يتيماً لعبدالله بن رواحة في حجزه ، فخرج بي في حملته تلك الى (مؤته) مردفي على حقيبة رحله ؛ فوالله انه ليسير ليلة اذ سمعته وهو ينشد مخاطباً ناقته :

اذا اديتني وحملت رجلي
مسيرة أربعٍ بعد الحساءِ
فشانك انعم وخلاك ذمٌ
ولا ارجع الى اهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني
بأرض الشام منتهي الثواء
وردك كل ذي نسب قريب
الى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا ابالي طلع بعل
ولا نخل اسافلها رواءِ

فلما سمعتهن منه بكيت . فخفقني بالدرة وقال : ما عليك يا لكع [اي لئيم] أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شعبتي الرحل . ثم ارتجز :

يا زيد زيد اليعملات الذبل
تطاول الليل عليك فانزل

ثم مضوا حتى نزلوا (معان) من ارض الشام فبلغ الناس ان هرقل الروم قد نزل (مآب) من ارض البلقاء في مائة الف من الروم ومائة الف من المرتزقة ، نعزم العرب على ان يكتبوا للرسول يخبرونه الخبر ، واصر عبدالله بن رواحة على القتال ، فيكون الروم مائتي الف والعرب المسلمون ثلاثة آلاف ، فقال عبدالله بن رواحة :

جلبنا الخيل من أجا وفرع
تُغَرّ من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سبتاً
ازلّ كأنّ صفحته اديم
اقامت ليلتين على معان
فاعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات
تنفّس في مناخرها السموم
فلا وابي ، (مآب) لناتينها
وان كانت بها عرب وروم
فعبانا اعنتها فجاءت
عوابس والغبار لها بريم
بذي لجب كأن البيض فيه
اذا برزت قوانسها النجوم
فراضية المعيشة طلقتها
اسنتها فتنكح او تئيم

تحضر الناس ، حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع (هرقل) من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها (مؤتة) ، فالتقى الناس عندها ، فتعبأ لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الانصار

يقال له : عبّادة بن مالك . ثم التقى الناس واقتتلوا ، والروم مائتا الف والعرب ثلاثة آلاف ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله (ص) حتى شاط (أي سال دمه فهلك) في رماح القوم ، ثم اخذها جعفر بن ابي طالب فقاتل حتى قتل ، فكان ثاني امير شهيد في هذه الوقعة . وقد وصف لنا احد المقاتلين مشهد البطولة الذي جسده جعفر في قلوب المسلمين عند استشهاده قال : والله لكأني انظر الى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة انسابها
عليّ اذ لاقيتها ضرابها

واخذ جعفر بن ابي طالب اللواء بيمينه فقطعت ، فاخذها بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . فلما قتل جعفر اخذ عبدالله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد ، ثم قال :

اقسمت يا نفس لتنزلنهْ
لتنزلنّ او لتكرهنهْ
إن اجلب الناس وشدوا الرنهْ
مالي اراك تكرهين الجنّةْ
قد طال ما قد كنت مطمئنهْ
هل انت الا نطفةٌ في شنهْ

وقال :

يا نفس الا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد اعطيت
ان تفعلي فعلهما هُديت

يشير الى صاحبيه الشهيدين «زيد وجعفر».

ثم نزل ، واخذ الراية وسيفه فتقدم ، فقاتل حتى قتل . فاخذ الراية ثابت بن اقرم وقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : انت . قال : ما انا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، بطل العراق ثم الشام على طول الحدود الغربية ، فانحاز بالعرب واستطاع ان يجهض نصر الروم ، وان يحوّل خسارة العرب للحرب الى عزة وكرامة ، فانقذ الجيش . وكان قطبة بن قتادة العذري على ميمنة المسلمين قد ترصّد لرجل عربي من الشام يقال له مالك ، خان

العرب وانحاز الى الروم مع كوكبة من فرسانه ، فحمل قطبة على مالك فقتله وهو ينشد :

طعنتُ ابن زافلة بن الإرا
ش برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربتُ على جيده ضربةً
فمال كما مال غصنُ السَّلَم
وسقنا نساء بني عمّه
غداة رقوقين سوق النّعَم

ولما عاد الجيش ، ودنا من (المدينة) تلقاهم الرسول والمسلمون . ولقيهم الصبيان يشتدون (اي يركضون مسرعين) فقال الرسول (ص) : خذوا الصبيان فاحملوهم واعطوني ابن الشهيد ، فأتي بعبدالله بن جعفر فاخذه فحمله بين يديه . وجعل الناس يحثّون على الجيش التراب ويقولون: يا فرّار ، فررتم في سبيل الله . فيقول رسول الله (ص) : ليسوا بالفرّار ، ولكنهم الكرّار ان شاء الله .

واعتذر قيس بن المسحّر اليعمري عما صنع بالجيش فقال :

فو الله لا تنفكُ نفسي تلومني
على موقف والخيل تابعة قُبْلُ

وقفت بها لا مستجيراً فنافذاً
ولا مانعاً من كان حُمّ له القتلُ
على انني آسيتُ نفسي بخالد
الا خالدٌ في القوم ليس له مثلُ
وجاشت لدىّ النفس من نحو جعفر
بمؤتةَ إذ لا ينفع النابلَ النبلُ
وضمّ الينا حجزتيهم كليهما
مهاجرة لا مشركون ولا عُزْلُ

فحسم الشعر موقف الناس ، واظهر لهم ان الفرسان في مؤتة لما وجدوا تفاوتا في الكفتين ، وانه من خطل الراي ان يباد ثلاثة آلاف فارس عربي مسلم بايدي مائتي الف رومي من البيزنطيين والمرتزقة ، تحاجزوا وكرهوا الموت عبثا ، فحقق انحياز خالد بن الوليد بمن معه منهم نجاحا في الخطة وانقاذا للموقف من كارثة محققة ، حتى ان الزهري يقول : ان المسلمين أمّروا خالد بن الوليد عليهم ففتح الله عليهم ، وكان عليهم حتى قفل الى النبي (ص) . فاعتبر الزهري نجاح خطة خالد فوزا وفتحا .

وبينما الناس يحثون الجيش بالتراب ، والرسول يدافع عنهم ، وقف شاعر من المسلمين مقاتل ، كان قد رجع لتوّه من مؤتة مع الجيش فانشد وقال :

كفى حزنا اني رجعت وجعفر
وزيد وعبدالله في رمس اقبر
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم
وخلفت للبلوى مع المتغبر
ثلاثة رهط قدموا فتقدموا
الى ورد مكروه من الموت احمر

فهو بموقفه هذا ، يعكس للناس شعور الالم المحض بانه ليس سعيدا بعودته وزيد وجعفر وعبدالله في قبورهم لم يرجعوا . ولقد كان لمؤتة ابلغ اثر واعمقه في نفوس الامة العربية ، وكان حافزا لتحرير الشام والاصقاع العربية التي تليها ، كما كان هذا اليوم شاحذا لشاعر العرب وموقظا لاحزانهم الى ان ياخذوا بثارهم ويطردوا المجرم المحتل ؛ فانطلق الشعر محفزا وموثبا في اروع قصائد الرثاء التي كانت تقال في الامراء الشهداء الثلاثة ، وبوجه خاص في جعفر ابن عم الرسول وقائد هجرة الحبشة . قال حسان بن ثابت :

تاوبني ليل بيثرب اعسر
وهم ، اذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لي عبرة
سفوحا واسباب البكاء التذكر

بلى ، إن فقدان الحبيب بلية
وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رايت خيار المؤمنين تواردوا
شعوب وخلفا بعدهم يتاخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا
جميعا واسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم
الى الموت ميمون النقيبة ازهر
اغر كضوء البدر من آل هاشم
ابي ، اذا سيم الظلامة ، مجسر
فطاعن حتى مال غير موسد
بمعترك فيه قنا متكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملتف الحدائق اخضر
هم جبل الاسلام والناس حولهم
رضام الى طود يروق ويقهر
بها ليل منهم جعفر وابن امه
علي ، ومنهم احمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ، ومنهم
عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج اللؤاء في كل مازق
عماس اذا ما ضاق بالناس مصدر

هم اولياء الله انزل حكمه
عليهم ، وفيهم ذا الكتاب المطهّر

وقال كعب بن مالك :

نام العيون ودمع عينك يهمل
سحّاً كما وكف الطباب المخضل
في ليلة وردت علي همومها
طوراً احن وتارة اتململ
واعتادني حزن فبت كانني
ببنات نعش والسماك موكل
وكانما بين الجوانح والحشا
مما تأوبني شهاب مدخل
وجداً على النفر الذين تتابعوا
يوماً بمؤتة اسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية
وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للاله نفوسهم
حذر الردى ومخافة ان ينكلوا
فمضوا امام المسلمين كانهم
فنق عليهن الحديد المرفل
اذ يهتدون بجعفر ولوائه
قدام اولهم ونعم الاول
قرم علا بنيانه من هاشم
فرعاً أشم وسودداً ما ينقل

قوم بهم عصم الإله عباده
وعليهم نزل الكتاب المنزل
تفضلوا المعاشر عزة وتكرما
وتغمدت احلامهم من يجهل
لا يطلقون الى السفاه حباهم
ويرى خطيبهم بحق يفصل
بيض الوجوه ترى بطون اكفهم
تندى اذا اعتذر الزمان الممحل
وبهديهم رضي الاله لخلقه
وبجدهم نصر النبي المرسل

ولا يتسع الموضع لاستقصاء الشعر الذي قيل في هذه الملحمة الكبيرة ، فهو كثير تذكره المصادر ، بين رثاء وفخر وحماسة ورجز . ويتمتع يوم مؤتة بخصوصية بين ايام العرب في الاسلام ، فهو اول لقاء عربي ضد الروم المحتلين ، كما انه يرقى بتاريخه الى عصر النبي (ص) مما يعطي لرسول الدعوة صفة المحرر فكريا وقوميا . وليس للعرب ايام مذكورة بالشعر قبل الاسلام ضد الروم ، كما ليس لهم ذلك بعده ايضا ، رغم ساحة اليرموك الواسعة ، وانما انحصرت اشعار التحرير ضد الفرس ، اي في ساحة القادسية ، وذلك لاسباب

عديدة ، لعل احد هــذه الاسـباب ، ان الفارسـية الاخمينية ثم الفارسية الـساسانية ، اسـتهدفت عبر التاريخ الطويل ، ثقافة الامة العربية بالاساءة والهدم والتخريب والمسخ والتشويه حتى ايـام الدولة العربية العباسية ، فلم تسلم من ايديهم غير الدولة العربية الاموية لانها كانت متيقظة ، ومـع ذلك يعزو المؤرخون زوال هذه الدولة الى الفـرس الاعاجم بنسبة مساهمتهم بما لا يقل عن خمسين بالمائة . لذلك كان العرب يشعرون بضرورة اشاعة ثقافتهم وتوسيع دائرة اعلامهم عن طريق الشعر الذي يمتلك تاثيراً سحرياً في المنطقة كلها منذ آلاف السنين والى اليوم . سبب آخر ، هو مباشرة الاحتلال الفارسي للوطن العربي بنفسه دون واسطة فكانت عاصمتهم الشتوية (طيـفون) [المدائن الاولى] ثم [المدائن الثانية] داخل الاراضي العراقية بينما كان الروم البيزنطيون يتركون للعرب حكم انفسهم ، حقاً كانت الحيرة عاصمة عربية ، وكان ملوكها من المناذرة وهم عرب ، لكن المدائن كانت هي المركز السياسي المتحكم بقبضته على كل الامور . واذا اضفنا عامل التجاور ، حيث تتصل الارض العربية مباشرة بالاراضي الايرانية ، نكون قد اصبحنا على اوضح صورة فيما يخص كثرة الشعر في التخوم الشرقية قياساً الى انعدامها في التخوم

الغربية ، حيث كان العرب يحرصون على تاصيل لغتهم بالشعر ، تجاه التيار الشعوبي القادم اليهم من الاراضي الفارسية . وعندما نضيف الى ما تقدم كون جميع القبائل التي ساهمت في حرب الفرس هي قبائل الشمال ، وقد رافقهم شعراء نجد والحجاز ، يظهر لنا ان القبائل التي ساهمت في حروب الروم هي قبائل اليمن وحضرموت والجنوب العربي . ونحن نعلم ان شمال الجزيرة اغزر انتاجاً في الشعر والادب من جنوبها منذ العصر الجاهلي ، وان حركة القبائل كانت نحو الشرق والغرب منذ ذلك العصر ايضاً ، فقد اتصلت غسان بارض الشام عند انفجار السد ، بينما ظلت قبائل معد وبالاخص بكر بن وائل تسيح في الارض من نهاية السواد حتى هضبة ايران ، فكان هذا المظهر من اخطر العوامل في الهاب وتر الشعر ليبعث باعذب الحانه واشجى اغانيه وافخم ملاحمه .

وبعد ملحمة (مؤتة) لا يطالعنا في (ساحة اليرموك) ادب مصيري يلفت اليه الانظار ، مع ان يوم « تبوك » يعد من أيام التحرير ضد الروم حيث أمر الرسول المسلمين ان يتجهزوا ، وذلك في شهر رجب من سنة تسع للهجرة ، لانه اراد غزو الروم، عندما علم بان جماعة من المرتزقة قد انضمت الى جند الروم لمحاربة دولة الوحدة وعاصمتها ، وان

طلائعهم قد وصلت الى البلقاء من ارض الشام ، وقد نزلت في هذا اليوم سورة (التوبة) ، وافتضح في هذا اليوم امر المنافقين . وبلغ رسول الله ان اناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، وكان بيته عند (جاسوم) « موضع » يثبّطون الناس عن الرسول في وقعة تبوك ، فانفذ اليهم الرسول مجموعة من فرسانه ، وامرهم ان يحرقوا عليهم بيت سويلم ، وكان فيه من بين الخصوم ، الشاعر ابن ابيرق الذي كان يكتب القصائد في هجاء الرسول والمسلمين وينحلها غيره من الشعراء، وشاعر آخر يقال له الضحاك ، افلتوا جميعهم ، نقال الضحاك ، وكان قد نجا بعد ان القى بنفسه من ظهر البيت وكسرت ساقه :

كادت وبيت الله نار محمد
يشيط بها الضحّاك وابن ابيرق

وظلْتُ وقد طبقت كبس سويلم
انوء على رجلي كسيراً ومرفقي

سلام عليكم لا اعود لمثلها
اخاف ومن تشمل به النار يُحرق

وقال ابو خيثمة مالك بن قيس في ساحة تبوك :

ولما رايت الناس في الدين نافقوا
اتيتُ التي كانت اعفّ واكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد
فلم اكتسب إثماً ولم اغشَ محرما
تركت خضيبا في العريش وصرمة
صفايا كراما بسرها قد تحمّما
وكنت اذا شك المنافق اسمحت
الى الدين نفسي شطره حيث يمّما

وكان رسول الله (ص) لما انتهى الى تبوك صالحه اهلها على الجزية ، فكتب ليوحنا بن رؤبة هذا الامان : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذه أمَنَة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة واهل « ايله » ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر : لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر. فمن احدث منهم حدثا ، فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر او بحر » وبذا تكون (مؤتة) و (تبوك) من ايام الرسول ضد الاحتلال البيزنطي ، تضاف الى استبشاره بنصر ذي قار ، واعتباره اول يوم تنتصف فيه العرب من الفرس . ومع ان (اليرموك) هي ساحة العرب الكبرى بعد القادسية،

الا أن شعرها قليل ، وهي مسيرة طويلة صعبة قوامها الصحراء والعطش ، وقال فيها شاعر من المسلمين بعد اجتيازها وعشور رافع بن عميرة الطائي ، دليل خالد بن الوليد على الماء مجتازا (قراقر) الى (سوى) ليصل اليرموك :

لله عينا رافع انى اهتدى
فوّز من قراقر الى سوى
خمساً اذا ما سارها الجيش بكى
ما سارها قبلك إنسيٌّ يُرى

فلما داهمهم خالد ، وجد ناسا منهم يشربون خمراً وساقيهم يغني ويقول :

الا عللاني قبل جيش ابي بكر
لعل منايانا قريب وما ندري
الا عللاني بالزجاج وكرّرا
عليّ كميت اللون صافية تجري
الا عللاني من سلافة قهوة
تسلّي هموم النفس من جيد الخمر
اظن خيول المسلمين وخالداً
ستطرقكم قبل الصباح من البشر
فهل لكم في السير قبل قتالهم
وقبل خروج المحصنات من الخدر

فقاتلهم خالد ، وظفر بهم ، وسار في طريقه

ليواجه الروم ، وكان (باهان) قد جاء بمدد عظيم ، فلما قدم خالد الى اليرموك لم يعسكر الى جانب معسكر ابي عبيدة ومعسكر عمرو بن العاص ومعسكر شرحبيل ، بل عسكر على حدة ، وكانت منه خطة بارعة ، رافقتها العملية التراجيدية التي قام بها خالد في اخفاء كتاب عمر بن الخطاب بعزله وتنصيب ابي عبيدة الجراح ، لحين انتهاء الحرب خوفا من اخماد جلوة المسلمين وتشتت عواطفهم ، فلما انتهت الحرب بالفوز ، سلم خالد الكتاب الى ابي عبيدة بالامارة ، ثم قال : «الحمد لله الذي قضى على ابي بكر بالموت ، وكان احبّ اليّ من عمر ، والحمد لله الذي ولّى عمر ، وكان ابغض اليّ من ابي بكر ثم الزمني حبه » . وكان ذلك من خالد تصرفاً قيادياً حكيماً لم يغضب عمر (رض) .

إن الابطال وحدهم ، يملكون قوة التوجيه الادبي في المعركة ، اما بقية الشعراء ، فانهم يستثمرون النتائج بعد المعركة ، ويقدحون شررها قبل وقوعها . ومن هؤلاء الشعراء الابطال القعقاع ابن عمرو ، وكان ضمن كتيبة خالد ، وقد صور مسيرة الجيش الى اليرموك :

بدانا بجمع الصفّرين فلم ندع
لغسان انفا فوق تلك المفاخر

صبيحة صاح الحارثان ومن به
سوى نفر نجتذّهم بالبواتر
وجئنا الى بُصرى وبُصرى مقيمة
فالقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها ابوابها ثم قابلت
بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

والقعقاع احد رموز (ساحة القادسية) الكبيرة ايضا ، سنلتقي به هناك ثانية . وكان خالد قد قسّم الجيش الى كراديس جعل عليها فرسان المسلمين ، وكان القعقاع على احدى الكراديس ، فاستفتح المعركة يرتجز ، وقد برز للقتال قائلا :

يا ليتني القاك في الطراد
قبل اعترام الجحفل الورّادِ
وانت في حلبتك الوِرادِ

وتبعه عكرمة بن ابي جهل وكان قائد كردوس من الكراديس ، فحمل على الروم وقال :

قد علمت بهكنة الجواري
إني على مكرمة احامي

وكان القاص في اليرموك هو ابو سفيان بن حرب يسير فيقف على الكراديس فيقول : « الله الله !! إنكم ذادة العرب وانصار الاسلام ، وإنهم

ذادة الروم وانصار الشرك ، اللهم ان هذا يوم من ايامك ، اللهم انزل نصرك على عبادك » .

وكان ابو احيحة القرشي يتغنى بعبقرية خالد التي اجتازت الصحراء في اخصر طريق ، كما تغنى بعبقرية دليله سابقا ، فقال :

لله درّ خالد انى اهتدى
والعين منه قد تغشّاها القذا
معصوبة كأنها ملئت ثرى
فهو يرى بقلبه ما لا يرى
قلب حفيظ وفؤاد قد وعى

وتختلط ذكريات القادسية بذكريات اليرموك، فتنطلق قريحة الشاعر الفارس القعقاع بن عمرو مصورة تساقط الروم البيزنطيين في (الواقوصة) مشيدة بكتيبة خالد وما فعلته من الإفاعيل في العراق فيقول :

الم ترنا على اليرموك فزنا
كما فزنا بايام العراق
قتلنا الروم حتى ما تساوى
على اليرموك مفروق الوراق
فضضنا جمعهم لما استحالوا
على الواقوصة البتر الرقاق

غداة تهافتوا فيها فصاروا
الى ام تعضّل بالمذاق

وانذر شاعر بفتح باب «توماء» مع ابي سفيان فقال :

الا ابلغ ابا سفيان عنا بانتا
على خير حال كان جيش يكونها
وانا على باب لتوماء نرتمي
وقد حان من باب لتوماء حينها

ولما فتحت دمشق ، عاد العرب المحررون الى مدينة (فحل) حيث تركوا هناك بعض الجند من العرب يناوشون روما يقدّرون بزهاء ثمانين الف محارب ، فالتقوا بهم وانتصروا عليهم انتصارا مبينا فقال القعقاع بن عمرو يصور ذلك :

وغداة فحل قد راوني معلما
والخيل تنحط والبلا اطوار
ما زالت الخيل العراب تدوسهم
في حوم فحل والهبا موّار
حتى رمين سراتهم عن أسرهم
في روعة ما بعدها استمرار

ومثله قول علقمة بن الارث العبسي :

ونحن قتلنا كل واق بآلـه
من الروم معروف النجاد منطّق

ونحن طلقنا بالرماح نساءهم
وابنا الى ازواجنا لم تطلّق
وكم من قتيل ارهقته سيوفنا
كفاحا وكفٍ قد اطيحت واسوُق

وهكذا جعل الشعراء الفرسان يرتجزون وينشدون عند مقتل كل قائد روماني او عند تحرير مدينة عربية . ففي فتح (اجنادين) وفرار (ارطبون) مثلا قال زياد بن حنظلة :

ونحن تركنا ارطبون مطرّداً
الى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشية اجنادين لما تتابعوا
وقامت عليهم بالعراء نسور
عطفنا لهم تحت العجاج بطعنة
لها نشج نائي الشهيق غزير
فطمنا به الروم العريضة بعده
عن الشامْ ادنى ما هناك شطير
تولت جميع الروم تتبع اثره
تكاد من الذعر الشديد تطير
وغودرَ صرعى في المكرّ كثيرة
وعاد اليه الفلّ وهو حسير

وقال الشاعر نفسه في تحرير الشام ايضا :

تذكرت حرب الروم لما تطاولت
واذ نحن في عام كثير نزالـه

واذ نحن في ارض الحجاز وبيننا
مسيرة شهر بينهن بلابله
واذ ارطبون الروم يحمي بلاده
يحاوره قرم هناك يساجله
فلما راى الفاروق ازمان فتحها
سما بجنود الله كيما يصاوله

ومن غريب ما نصادفه في ادب المعركة المصرية ضد الروم : قصيدة تنسب لابي العيال الهذلي ، ارسل بها صاحبها الى طائفة من قادة العرب المسلمين يومئذ ، ويقول عنها باحث معاصر « وفي راينا ان القصيدة كانت في محاولة الروم استعادة مصر للمرة الثانية ، بحملة (منويل) الداخلة في مشروع (قسطانز) لاستعادة الامبراطورية الرومية لمصر والشام . وهذه الحملة كانت في عام (٢٥ هـ) في الوقت الذي كان فيه معاوية بن ابي سفيان واليا للشام ، ويعمل بكل قواه لرد طرف الحملة الثاني عن الشام ، اذ كانت حملة مزدوجة ذات شعبتين . وليست هناك حوادث تاريخية جمعت بين هؤلاء الذين يتوجه اليهم الشاعر برسالته الا هذه الحملة فمعاوية امير الشام يقضي على حملة (مانويل) في الشام ، فمنيت امامه بهزيمة فادحة ، وعبدالله بن سعد هو امير مصر ، وعمرو بن العاص محررها ،

واميرها السابق الذي تصدى لهذه الحملة بعد أن الى به الخليفة وكلفه بها ، وقد كانت توغلت داخل الاراضي المصرية وكان عددها كبيرا ، اذ تقدمت في ثلاثمائة سفينة ، وتقدمت من الاسكندرية التي استسلمت مباشرة الى حصن (بابليون) ووقفت على اطراف الصعيد كما يقول ابو العيال ، ونهد اليها عمرو بن العاص في نقيوس ، وهزمها ، وعادت تتحصن في الاسكندرية وتنصب المجانيق على اسوارها ، فسواها عمرو بالتراب ، ودخل المدينة في الوقت الذي انتهى منه من القضاء على الحملة في الشام » ، فالقصيدة انذار شعري تستنهض القادة تذكرنا بقصيدة لقيط بن يعمر الايادي قبيل ذي قار . قال ابو العيال الهذلي :

من ابى العيال ابي هذيل فاعرفوا
قولي ولا تتجمجموا ما ارسل
ابلغ معاوية بن صخر اية
يهوي اليه بها البريد المعجل
والمرء عمراً فاته بصحيفة
منّي يلوح بها الكتاب المنزل
والى ابن سعد إنْ اؤخره تقد
ازرى بنا في قسمة اذ يعدل
والى اولي الاحلام حيث لقيتهم
حيث البقية والكتاب المنزل

انـــا لقينـــا بعـــدكم بديارنا
مـــن جانب الامراج يـــوماً يـــسال
امراً تضيق بـــه الصـــدور ودونـــه
مهج النفوس وليس عنه معـــدل
في كل معـــركة يـــرى منـــا فتى
يهـــوى كعـــزلاء المزادة يزغـــل
او سيد كهـــل تمـــور دماؤه
او جانح في صـــدر رمـــح يسعـــل
حتـــى اذا رجـــب تخلّى وانقضى
وجمـــاديان وجاء شهـــر مقبـــل
شعبان قـــدرنا لوقف رحيلهـــم
سبعاً يعـــد لهـــا الوفاء فتكمل
وتجـــردت حـــرب يكون حلابهـــا
علقاً ويمريهـــا الغـــوي المبطل
فاستقبلوا طرف الصعيد اقامـــة
طـــوراً وطـــوراً رحلـــة نتنقـــل
فترى النبـــال تعير في اقطـــارنا
شمســـاً كان نصالهـــن السنبـــل
وترى الرماح كانمـــا هي بيننـــا
اشطـــان بئر يوغلـــون ونوغـــل

وقد لاحظ بعض الدارسين « ان القصيدة ليست كاملة ، وان تسلسل الفكرة فيها منعدم » . ومما نلاحظه على الشعر في هذه الاصقاع ، امتدادا

من الشام حتى مصر ، فهو ظهور تطور في آلة الحرب ، فبدأت تظهر في الشعر آلة المنجنيق مثلا وحرب النار وحصار المدن والقلاع ، ولم يكن لها اثر في حروب الردة او انتكاسة الوحدة او حروب التخوم الشرقية التي حفلت باغزر الشعر واشده حماسة وقوة اسر ، كما حفلت باشجى الشعر واعذبه .

ونستطيع ان نستخرج من شعر التحرير والفتوح بعض السمات الفنية التي تعد من اوضح مؤشرات الالتزام في الشعر . لقد خلقت حركة التحرير او النزوح بعيدا عن الاوطان ، معاناة جديدة في الشعر ، كان من نتائجها ذلك الحس القومي الملتهب والحب العميق للارض العربية وقوة الارتباط بها ، فكان بعض الشعراء تستثيره مشاهد الطبيعة الخلابة في الغربة ، فتهز احساسه نحو ارضه وقومه . وربما كان مشهد البرق الملتمع من اقاصي جهات الشام او نجد او الحجاز او اليمن او العراق ، كان مدعاة لشعور شجي واحساس حزين نحو تلك الاوطان التي اصبحت بعيدة لا يزورها الشاعر الا في طيف الخيال او على اجنحة الاحلام كقول كثير بن الغريزة النهشلي ، وقد الهب البرق خياله في الغربة :

سقى مزن السحاب اذا استقلت
مصارع فتية بالجوزجان
الى القصرين من رستاق خوط
اقادهم هناك الاقرعان
وما بي ان اكون جزعت الا
حنين القلب للبرق اليماني
ومحبور برؤيتنا يرجّى اللقا
ء ولن اراه ولن يراني

وحقا ما تنبأ به الشاعر ، فان الموجات العربية المتدفقة على الشرق والغرب قد توطنت هناك ، وتزوجت واتسلت ، وانجبت اجيالا واجيالا ومثله قول رفيقه في السلاح ، يحن الى نجد وقد لمح خيالها يلوح من بين لمان البروق :

ابكى على نجد وريّا ولن ترى
بعينيك ريّا ما حييت ولا نجدا
ولا مشرفا ما عشت اقفار وجرة
ولا واطئا في تربهن ثرىً جعدا
ولا واجداً ريح الخزامى توقها
رياح الصبا تعلو دكادكً او وهدا
تبدلت من ريّا وجارات بيتها
قرى نبطيات يسمينني مردا
الا ايها البرق الذي بات يرتقي
ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا

الم تر ان الليل يقصر طوله
بنجد وتزداد الرياح به بردا

وقال مقاتل ثالث ، يرسم خطو رفيقه في الحنين :

احن الى روض الحجاز وحاجتي
خيام بنجد دونه الطرق تقصر
وما نظري من نحو نجد بنافع
اجل لا ، ولكني الى ذاك انظر
افي كل يوم نظرة ثم عبرة
لعينيك مجرى مائها يتحدر
متى يستريح القلب اما مجاور
بحرب واما نازح يتذكر

لقد كانت هذه الاناشيد الشجية تملأ فضاء المعركة دويّا قوميا ، وتنتقل من ارض الغربة الى ارض العروبة ، فتكون غذاء الناس الروحي ومعينهم الذي لا ينضب في التربية الوطنية ، حتى اننا لنجد الادباء فيما بعد يصنفون الكتب والرسائل في اشعار الغربة والحنين الى الوطن كما فعل الجاحظ واصحاب الحماسات والاختيارات وكتب الادب في العصر العباسي .

وتعدّ (ساحة القادسية) اكبر الساحات

العربية بلاءً وشرفا وفخراً ، وان أيامها لتطول واشعارها لتتدفق وابطالها يزدحمون حتى ما تدري لمن تاخذ ، خالد ام سعد ام القعقاع ام المثنى ام عمرو بن معد يكرب ام قيس بن مكشوح ام النعمان ابن مقرن ام أبو عبيد بن مسعود ام أبو محجن ؛ فهذا المثنى ، يتفوق في يوم « البويب » على الفرس بذكائه ورأيه وشجاعته مع ما للفرس من وفرة العدد ، فقال فيه الشاعر الأعور الشني :

هاجت لأعور دار الحي احزانا
واستبدلت بعد عبدالقيس همدانا
وقد ارانا بها والشمل مجتمع
اذ بالنخيلة قتلى جند (مهرانا)
ازمانَ سار المثنى بالخيول لهم
فقتّل القوم من فرس وكيلانا
سما لاجناد مهران وشيعته
حتى اباده مثنى ووحدانا
ما إن رأينا اميراً بالعراق مضى
مثل المثنى الذي من آل شيبانا
ان المثنى الامير القرم لاكذب
في الحرب اشجع من ليث بخفانا

وقد نستغرب من اجتماع الفرس والروم والمرتزقة من غيرهما في وقعة تدعى (الفراض)

نصر الله العرب المسلمين فيها نصراً قطع دابر هذا التحالف الباغي ، فقال القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع روم
وفرس غمها طول السلام
ابدنا جمعهم لما التقينا
وبيتنا بجمع بني رزام
فما فتئت جنود السلم حتى
رأينا القوم كالغنم السوام

وكانت القادسية ونهاوند اكبر وقعتين خاضتهما العرب في الاطراف الشرقية ، ولا عجب ؛ فهذا الجناح اكثر الاجنحة العربية خطورة وحساسية ؛ فلم يكن العرب ولا الفرس قد شهدوا معركة اشدّ هولا وفزعا منها ؛ حيث قدر المؤرخون شهداء العرب فيها بثلاثة آلاف ؛ وقتلى الفرس بثلاثين الفاً . وقد كان مقتل رستم خاتمة الحرب، وانه لمن اطرف ما يروى في مقتله ان القبائل والعرب تنازعت بالشعر في احتجاج شرف قتله لكي تنسب لنفسها تحرير هذا الجناح الكبير . فادعى قتله القعقاع ونسبوا اليه قوله عند مقتل رستم :

نحن قتلنا معشراً وزائدا
اربعة وخمسة وواحدا
نحسب تحت اللبد الاساودا
حتى اذا مالوا دعوت واحدا

الله ربي واحترزت عامداً

ونسب عمرو بن معد يكرب هذا الانجاز الى سيفه حيث قال :

الم بسلمى قبل ان تظعنا
إن لنا من حبها ديدنا
قد علمت سلمى وجاراتها
ما قطّرَ الفارس الا انا
شككتُ بالرمح حيازيمه
والخيل تعدو زيماً حولنا

وهذا زهير بن عبد شمس ، يحوز بهذا الشرف لنفسه ويقول :

انا زهير وابن عبد شمس
أرديت بالسيف عظيم الفرس
رستم ذا النخوة والدمقس
اطعت ربي وشفيت نفسي

ثم جاء دور عمرو بن شاس الاسدي ليفخر بهذا الصنيع وينسبه الى قبيلته :

جلبنا الخيل من اكتاف نيق
الى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الاقتام شجواً
وبالحقوين أياماً طوالا

وداعية بفارس قد تركنا
تبكّي كلما رات الهلالا
قتلنا رستماً وبنيه قسراً
تثير الخيل فوقهم الهيالا
وفرّ الهرمزان ولم يحام
وكان على قبيلته وبالا
تركنا منهم حيث التقينا
قياماً ما يريدون ارتحالا

ولا تعد ظاهرة تنازع القبائل في قتل رستم مشكلة ، فهي ، كما يشير واقع الحال ، تفيد ان جميع القبائل سارعت بانجب فرسانها لتحوز لنفسها بقسط من شرف المساهمة في القضاء على هذا الطاغية لكي لا تكون في معزل عن هذا الانجاز الحربي المهم عند تفاخر القبائل بذلك . ولربما كانت كل قبيلة صادقة في شعرها ، لان القادة الفرس كانوا يرتدون جميعاً بزّات عسكرية متشابهة ، ولم تكن وجوههم تظهر لكثرة ما يضعون على رؤوسهم واجسادهم من السلاح ، فلم يكن بالهيّن معرفة رستم بين من يشبهونه في اللباس والتنكر ، فكانوا يغيرون على الجميع دون تمييز الاصل من الاشباه ، فيقتلونهم . لذلك جاءت هذه الظاهرة الشعرية في تعدد النسبة لمن قتل القائد الفارسي المجوسي رستم .

وكنت قد اعطيت بعض الملامح الجديدة لاشعار

المعارك العربية ضد الاجنبي المحتل من قبيل ذكرها للاسلحة المتطورة التي استخدمت في ضرب القلاع والحصون ، واسلحة الحرق والتدمير الى جانب السيف والرمح ، لكن يبقى السيف رمزاً خالداً في التعبير عن النصر والشجاعة ، وكذلك يلفت نظرنا مظهر جديد في الموضوعات العربية الموروثة . فالرثاء وان كان في العصر الجاهلي قد تميز عن سواه من الاغراض ، حيث اخذت قصيدة « التابين » شكل التقليد الجاهلي للشعر ، عندما يكون الفقيد قد مات موتا طبيعيا ، لكن (رثاء الفرسان) يبدو وكانه قد تخلص من هذه التقاليد في ذكر الطلل مقروناً بالغزل والرحلة . اما في الشعر الحربي ، اثناء معارك التحرير ، فقد اخذ (الرثاء) بعداً جديداً الى جانب ما اصابه في العصر الجاهلي من التطور حيث اصبح الرثاء استبشاراً بحتمية الشهادة والفوز بجنان الخلد ، مع التاكيد على ان تتلظى المشركين والمجوس في النار . وهو معنىً اوحته الصيغ العربية الاسلامية الجديدة . ويتبع هذا التجديد ، رثاء الفرسان لانفسهم ، ورثاؤهم لبعض ما يفقدونه في الحرب من اعضاء جسمهم مثل عيونهم وايديهم وارجلهم ، فعندما استحرّ الموت برفاق كثير النهشلي جزع على هؤلاء الشهداء ، فرثاهم ورثى نفسه ، لانه واثق من استشهاده

القريب ؛ وقد بدا القصيدة برثائه الشهداء ، فلما انتهى منهم قال يرثي نفسه :

فلا تستبعدا يومي فاني
ساوشك مرة ان تفقداني
ويدركني الذي لابد منه
وان اشفقتُ من خوف الجنان
وتبكيني نوائح معولات
تركن بدار معترك الزمان
حبائس بالعراق منهنهات
سواجي الطرف كالبقر الهجان

اعاذلتيَّ من لوم دعاني
وللرشد المبيّن فاهدياني
وعاذلتي صوتكما قريب
ونفعكما بعيد الخير ، وان
فردّا الموت عني ان اتاني
ولا وابيكما لا تفعلان

وهذه الظاهرة ملموسة في ادب المعارك القومية ، نمثله فعل اخو بني كاهل في قصيدته القافية ، ومالك بن الريب في يائيته المشهورة . لكن هذه الظاهرة جاهلية ايضا بداها عبد يغوث بن صلاءة في يائيته التى حكى بحرها وقافيتها مالك . ومما قاله الشعراء في اجزاء من جسمهم تصاب في الحرب

قول عبدالله بن سبرة حين قتل (ارطبون الروم) فقطع ارطبون اصابع يده بضربة من سيفه :

فان يكن أرطبون الروم افسدها
فانّ فيها بحمد الله منتفعا

بنانتان وجرموز اقيم به
صدر القناة اذا ما آنسوا فزعا

وان يكن ارطبون الروم قطعها
فقد تركت بها أوصاله قطعا

وقد حفلت كتب الادب وتراجم الصحابة واسفار المؤرخين باشعار الفرسان يذكرون اعضاء جسمهم التي تسببت الحرب بترها ؛ فيفخرون بذلك ؛ مما يضفي على الاتجاه الموضوعي لاشعار المعارك المصيرية القومية لونا جديدا من الالتزام لم يسبق ان التقينا به في شعر العرب في المراحل المتقدمة .

طائفة من المصادر والمراجع المعتمدة في البحث :

١ ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ت : مصطفى السقا وجماعته .

٢ ـ تاريخ الرسل والملوك لابي جعفر الطبري ـ طبع ليدن ١٨٩٢ .

٣ ـ الاغاني ـ لابي الفرج الاصفهاني ـ دار الكتب المصرية .

٤ ـ ديوان الاعشى ـ ت : محمد محمد حسين ١٩٥٠م .

٥ ـ ديوان امية بن ابي الصلت . ت : د. بهجة عبدالغفور . نشر وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٥م .

٦ ـ ديوان لبيد بن ربيعة . ت : الدكتور احسان عباس . نشر الكويت ١٩٧٤ .

٧ ـ ديوان لقيط بن يعمر . ت : د. خليل ابراهيم العطية . نشر وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٦٨م .

٨ ـ ديوان النابغة الذبياني ت : الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم . نشر دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .

٩ ــ ديوان عدي بن زيد العبادي ت : محمد جبار المعيبد . وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٦٥م .
١٠ــ معجم البلدان لياقوت الحموي . ط . ليبزك ١٨٦٦م .
١١ــ معجم ما استعجم للبكري . ت : مصطفى السقا ١٩٤٥ .
١٢ــ الأمالي لأبي علي القالي . ط ــ دار الكتب ١٩٢٦ .
١٣ــ فتوح البلدان للبلاذري . ليدن ١٨٦٦م .
١٤ــ خزانة الادب للبغدادي . ط . بولاق ١٢٩٩هـ .
١٥ــ العمدة لابن رشيق . ط . السعادة ١٩٠٧ .
١٦ــ الطبقات الكبرى لابن سعد . ليدن ١٣٢٢هـ .
١٧ــ طبقات فحول الشعراء لابن سلام . ت : الاستاذ محمد محمد شاكر مصر ١٩٧٢ .
١٨ــ فتوح مصر والمغرب ــ ابن عبدالحكم . مصر ١٩١٤ وليدن ١٩١٤ .
١٩ــ العقد الفريد ــ ابن عبدربه ــ لجنة التاليف والترجمة ١٩٤٢م .
٢٠ــ الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة ت : احمد محمد شاكر ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

٢١ــ المفضليات ــ للضبي ت : احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ــ دار المعارف بمصر .
٢٢ــ فتوح الشام ــ الواقدي ــ مصر ١٣٠٢هـ .
٢٣ــ ديوان الهذليين ــ نشر دار الكتب المصرية .
٢٤ــ الاصنام لابن الكلبي ــ تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ــ دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ .
٢٥ــ شاعرات العرب لبشير يموت ــ طبعة اولى ــ بيروت .
٢٦ــ مراثي شواعر العرب ــ الاب لويس شيخو اليسوعي ــ طبعة اولى ــ بيروت .
٢٧ــ آثار ذوات السوار ــ لحشيشو ــ طبعة اولى ــ بيروت .
٢٨ــ شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام ــ النعمان القاضي ــ مصر ١٣٨٥هـ .
٢٩ــ مصر العربية ــ د. حسين نصار ــ الجمعية الادبية ١٩٦١ .
٣٠ــ مجلة الموقف الادبي ــ مقالة بعنوان الموثبات في الادب العربي ــ دمشق عددان في مجلد واحد ١٩٨٠ . المقالة بقلمنا .
٣١ــ مجلة الجامعة (الموصل) العدد الرابع ١٩٧٩ مقالة بعنوان نضال الوحدة واثره في الشعر قبل الاسلام . المقالة بقلمنا .

٣٢ـ مجلة المستقبل العربي ـ اصدار مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت العدد السابع ١٩٨٠ مقالة بعنوان : الشعر ونضال الوحدة في صدر الاسلام . بقلمنا .

المحتويات

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ ـ العرب والحضارة الاوربية ، د. فيصل السامر .
٢ ـ فلسفة الفيزياء ، د. محمد عبداللطيف مطلب .
٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي عزيز السيد جاسم .
٤ ـ قضايا المسرح المعاصر ، سامي خشبة .
٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العربي . محمد ازهر السماك .
٦ ـ الثورة والديمقراطية ، صباح سلمان .
٧ ـ دانتي ومصادره العربية والاسلامية ، عبدالمطلب صالح .
٨ ـ الطب عند العرب ، د. عبداللطيف البدري .
٩ ـ انغولا .. الثورة وابعادها الافريقية ، حلمي شعراوي .
١٠ـ معالجات تخطيطية لظاهرة التحول الحضري ، د. حيدر كمونـــة .
١١ـ مصادر الطاقة ، د. سلمان رشيد سلمان .
١٢ـ التراث كمصـــدر في نظرية المعرفـــة وابداع في الشعر العربي الحديث ، طراد الكبيسي .
١٣ـ التقدم العلمي والتكنولوجي ومصاعبه الاجتماعية ، د. نوري جعفر .
١٤ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية ، عبدالغني عبدالغفور .

١٥ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي ، د. كاظم حبيب .
١٦ـ فن كتابة الاقصوصة ترجمة : كاظم سعدالدين .
١٧ـ الاعلام والاعلام المضاد ، صاحب حسين .
١٨ـ استثمار المـــواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة ، طارق شـــكر محمود .
١٩ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د. هاشم الطعـــان .
٢٠ـ الانســان اخر المعلومات العلمية عنه ، ترجمـــة : كاميران قرهداغي .
٢١ـ الشعر في المدارس ترجمة : ياسين طه حافظ .
٢٢ـ من عصر البخار الى عصر الليزر ، د. اسامة نعمان .
٢٣ـ الاتصال والتغير الثقافي ، هادي نعمان الهيتي .
٢٤ـ المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب ، د. جعفر آل ياسين .
٢٥ـ الصهيونية ليست حركة قومية ، بديعة امين .
٢٦ـ الدفاع المدني الشعبي ، صالح مهدي عماش .
٢٧ـ النسبية من نيوتن الى انشتاين ، د. طالب ناهي الخفاجي
٢٨ـ فن التمثيل عند العرب ، د. محمد حسين الاعرجي .
٢٩ـ الموسيقى الالكترونية ، د. علي الشوك .
٣٠ـ دراسة في التخطيط الاقتصادي ، د. يحيى غني النجار

٣١ـ الرواية العربية والحضارة الاوربية ، شجاع مسلم العاني.

٣٢ـ نقدالفكر البرجوازي المعاصر، ترجمة: يوسف عبدالمسيح ثروه .

٣٣ـ الطاقة وآفاقها المستقبلية ، د . عادل كمال جميل .

٣٤ـ فن الترجمة ، ترجمة د . حياة شرارة .

٣٥ـ صورة الكون ، د . محمد عبداللطيف مطلب .

٣٦ـ مدارس النقد الادبي الفرنسي المعاصر . نهاد التكرلي .

٣٧ـ النهضة ، د . كمال مظهر احمد .

٣٨ـ الحرب النفسية ، د . فخري الدباغ .

٣٩ـ الانسان والبيئة ، ترجمة عصام عبداللطيف احمد .

٤٠ـ في علم التراث الشعبي ، لطفي الخوري .

٤١ـ مساهمة العرب في علوم الحياة ، عادل محمد حسين الشيخ علي .

٤٢ـ العنصرية الصهيونية ، د . عبدالوهاب المسيري .

٤٣ـ المصادر الاساسية للفنان التشكيلي المعاصر في العراق ، عادل كامل .

٤٤ـ سايكلوجية الطفل في مرحلة الروضة ، مدحت عبدالرزاق عبدالنبي .

٤٥ـ لمحات موجزة من تاريخ نضال الشعب العراقي ، صادق حسن السوداني .

٤٦ـ التكنولوجيا المعاصرة ، د. طه تايه ذياب و د. سامي مظلوم صالح .

٤٧ـ نظرية النظم . تاريخ وتطور . د . حاتم الضامن .

مكتبتنا العربية

٤٨ـ الطفل هذا الكائن العجيب ، د. ضياء الدين ابو الحب

٤٩ـ في المسرح الشعري ، عبد الستار جواد .

٥٠ـ الكيمياء عند العرب . د. جابر الشكري .

٥١ـ نزعات انسانية في موسيقى بتهوفن ، قاسم الدباغ .

٥٢ـ نظرات في علم الوراثة ، د. عبدالاله صائغ .

٥٣ـ مقدمة في تاريخ العربية ، د . ابراهيم السامرائي .

٥٤ـ الاسطورة ، د. نبيلة ابراهيم .

٥٥ـ برج بابل ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا .

٥٦ـ التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط ، ترجمة وتعريب عادل ابراهيم يعقوب .

٥٧ـ الرواية والمكان ، ياسين النصير .

٥٨ـ التخطيط المعاصر للمدن ، د. باسم رؤوف .

٥٩ـ هذا هو الفارابي ، مدني صالح .

٦٠ـ اعلام في النحو العربي ، د. مهدي المخزومي .

٦١ـ حضارة الرقم الطينية وسياسة التربية والتعليم في العراق القديم ، ترجمة : يوسف عبدالمسيح ثروة .

٦٢ـ نظرات جديدة في مستقبل العمل الثقافي ـ سعد البزاز.

٦٣ـ في صحة المجتمع . د. عبدالحسين بيرم .

٦٤ـ الرياضيات عند العرب . د. احمد نصيف الجنابي .

٦٥ـ الابعاد القومية لثورة مايس ١٩٤١ في العراق د. محمد مظفر الادهمي .

٦٦ـ جدلية ابي تمام د. عبدالكريم اليافي .

٦٧ـ المدخل لتاريخ العمارة السياسية وتطورها . شريف يوسف

الطب البيطري عند العرب . د. طه حامد الشبيب .
جماليات الفنون . د . كمال العيد .
العلاج النفسي ، انواعه ، اساليبه ، مدارسه .
د. فخري الدباغ .

ملامح من الشعر القصصي في الادب العربي د. نوري
حمودي القيسي .

تاريخية المعرفة منذ الاغريق حتى ابن رشد .

التزامن بين الحروب الصليبية والف ليلة وليلة عبدالغني
الملاح .

الدماغ البشري د. طارق ابراهيم حمدي .

اراء في الكتابة والعمل الصحفي . وائل العاني .

تيارات حديثة في الادب الالماني . د. مصطفى عبدالحميد
هنا بدأ التاريخ . تاليف س . ن كريمر ، ترجمة :
ناجية مراني .

ظهور الرواية الانجليزية . ترجمة د. يوئيل يوسف
عزيز .

اضواء على حركة الشباب في القطر العراقي ، شامل
عبدالقادر .

المعجم العربي د. حسين نصار .

بين القادسية الاولى وقادسية صدام حسين . مهدي
حسين البصري .

الادارة الانتاجية . تاليف : جي . اي . فارادي ، ترجمة :
ابراهيم عبدالله جرجيس . سلمان يعقوب العبيدي .

الانسان في ادب وادي الرافدين . د. يوسف حبي .

٨٤ـ الثورة والسياسة الدولية . جمال عبدالرزاق البدري .

٨٥ـ تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي .
د. عبدالجبار ناجي .

٨٦ـ اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية .
د. عمر الطالب .

٨٧ـ شعر الحرب عند العرب د. نوري حمودي القيسي .

٨٨ـ مقدمة في علم الآثار . د. تقي الدباغ .

٨٩ـ الطقس والمناخ . د. صباح محمود احمد .

٩٠ـ مدخل الى الشعر الاسود الامريكي . احمد مرسي .

٩١ـ الامراض النسوية في التاريخ واخبارها في العراق الحديث
د. كمال السامرائي .

٩٢ـ الف ليلة وليلة في الغرب د. محسن جاسم الموسوي .

٩٣ـ تلوث البيئة وتخطيط المدن د. حيدر عبدالرزاق كمونة .

٩٣ـ تلوث البيئة وتخطيط المدن د . حيدر عبدالرزاق كمونة .

٩٤ـ سياسة عدم الانحياز وافاق تطورها.شريف جويد العلوان .